دِرَاسَاتٌ قُرآنِيَّةٌ (3)

سُورَةُ البَقَرَةِ (1)

(60-1)

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتـــاب: **دراسات قرآنية** (3)

سورة البقرة (1 - 60)

تـــألـــيـــف: **الشيخ مصطفى قصير** قدس سره

مراجعة وتنسيق: **مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة**

إصـــــدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية**

الـطـبـعـة: الأولى - 2019م/1440هـ

تصميم وطباعة: DBOUK 009613336218

ISBN 978-614-467-???-?

books@almaaref.org.lb

00961 01 467 547

00961 76 960 347

موسوعة العلامة الشيخ مصطفى قصير العاملي

دراسات قرآنية (3)

سورة البقرة (1)

(60-1)

الجزء السابع

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

تعريف بالسورة 9
فضيلة السورة 9
البحث التفسيريّ 10
الآية (1) 10
الآية (2) 12
الآية (3) 14
الآية (4) 18
الآية (5) 20
الآية (6) 22
الآية (7) 24
الآية (8) 26
الآية (9) 27
الآية (10) 28
الآية (11) 29
الآية (12) 32
الآية (13) 33
الآية (14) 34
الآية (15) 35
الآية (16) 36
الآية (17) 38

ما هو وجه التشبيه؟ 39
الآية (18) 41
الآية (19) 41
الآية (20) 41
الآية (21) 43
ما هي شروط العبادة؟ 44
مراتب العبادة 45
إخلاص العبادة: التسليم لأمر الله 45
لماذا لا نجد لذّة العبادة؟ 46
الآية (22) 48
الآية (23) 50
إعجاز القرآن والسرّ فيه 53
دلالة الإعجاز على صدق النبوّة 56
الآية (24) 56
الآية (25) 57
الآية (26) 60
الآية (27) 61
الآية (28) 63
الآية (29) 67
الآية (30) 67
الآية (31) 71
الآية (32) 72
الآية (33) 72
الآية (34) 72
الآية (35) 76
الآية (36) 79
الآية (37) 81

فما هي هذه الكلمات؟ 82
الآية (38) 84
الآية (39) 85
الآية (40) 87
الحثّ على شكر النعم 89
أنواع النعم 90
الآية (41) 91
الآية (42) 94
الآية (43) 95
الآية (44) 97
الآية (45) 99
الآية (46) 101
الآية (47) 102
الآية (48) 103
الآية (49) 103
من هو فرعون؟ 104
لماذا البلاء؟ 106
الآية (50) 107
الآية (51) 109
الآية (52) 110
الآية (53) 110
الآية (54) 112
الآية (55) 114
استحالة رؤيته -تعالى- 115
حقيقة الصاعقة 118
الآية (56) 118
الآية (57) 119
الآية (58) 121
الآية (59) 124
الآية (60) 125

تعريف بالسورة[1]

نزلت سورة البقرة في المدينة المنوّرة بعد الهجرة النبويّة الشريفة[2]. وسبب تسميتها بهذا الاسم ورودُ قصّة البقرة فيها، والتي جرت أحداثها بين النبيّ موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل، وهذا من باب تسمية السورة باسم أحد الموضوعات الواردة فيها.

وهي أطول سورة في القرآن، وفيها آية الكرسي، ولها فضل خاصّ، نتعرّض له عند تفسيرها، إنْ شاء الله.

فضيلة السورة

ورد في فضل هذه السورة روايات عدّة، منها:

1. ما رواه أُبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من قرأها، فصلوات الله عليه ورحمته، وأعطي من الأجر كالمرابط في سبيل الله سنة، لا تسكن روعته. وقال لي: يا أُبَي مُر المسلمين**

(1) فسّر سماحة الشيخ هذه السورة في سنة 2016م/ 1437هـ.ق.

(2) انظر: الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحقّقين، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1415هـ.ق/1995م، ط1، ج1، ص74.

أن يتعلّموا سورة البقرة، فإنّ تعلّمها بركة، وتركها حسرة، **ولا يستطيعها البَطَلَة.** قلت: يا رسول الله، ما البَطَلَة؟ قال: **السحرة**»[1].

2. ما رواه سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إنّ لكلّ شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة. من قرأها في بيته نهاراً لم يدخل بيتَه شيطانٌ ثلاثةَ أيّام، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخله شيطان ثلاث ليال**»[2].
3. ما روي من أنّه سُئِلَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ سور القرآن أفضل؟ قال: «**البقرة**. قيل: أيّ آي البقرة أفضل؟ قال: **آية الكرسيّ**»[3].
4. ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**من قرأ البقرة، وآل عمران، جاء يوم القيامة تظلّانِه على رأسه مثل الغمامتين، أو مثل الغيابتين**»[4].

البحث التفسيريّ

الآية (1)

﴿الٓمٓ﴾:

تتألّف هذه الآية من حروف مقطّعة. لقد دار جدل كبير بين المفسّرين بصدد تفسيرها وتفسير غيرها من الحروف المقطّعة الواردة في القرآن الكريم (في 28 سورة). وفي المجاميع الحديثيّة

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، مصدر سابق، ج1، ص74.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه، ص75.

جملة من النصوص المرويّة في تفسيرها. ومن أبرز الأقوال في معنى هذه الحروف الآتي:

1. إنّ القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الخالدة، تحدّى العرب، وعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، ولو استطاعوا لفعلوا؛ لأنّهم كانوا بحاجة إلى إفشال دعوته بعد أن سفّه أحلامهم، وأبطل آلهتهم، وسلبهم عزّهم ومجدهم المزيّف، ولم يتمكّنوا بأموالهم وجاههم وسلاحهم أن يَحُولوا دون انتشار الإسلام، والقرآن يتحدّاهم، فكان عليهم الاستجابة له لو استطاعوا، لكنّهم لم يستجيبوا، وهذا دليل عجزهم، مع أنّهم أرباب الكلام، وأهل الفصاحة والبلاغة.

ومن هذا المنطلق، فإنّ هذه الحروف المقطّعة تصبّ في اتّجاه التحدّي، فتقول: إنّ القرآن الذي أعجزكم الإتيان بمثله مؤلَّف من هذه الحروف التي هي مباني لغتكم، ويدلّ عليه أنّ هذه الحروف متبوعة دائماً بالإشارة إلى الكتاب: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾. وقد ورد هذا المعنى عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام في التفسير المنسوب إليه[1].

2. كون هذه الحروف مباني اللّغة العربيّة لا يمنع في مقام انتقائها من بين بقيّة الحروف أن تكون في الوقت نفسه إشارة إلى أسماء معيّنة، ورموزاً تدلّ على صفات خاصّة، وأمثال ذلك. وفي هذا الصدد روايات عدّة[2]، منها:

(1) انظر: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه - قم المقدسة، ربيع الأول 1409، ط1، ص62.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص63-66.

أ. إنّها إشارات إلى أسماء الله وصفاته، فـ﴿الٓمٓ﴾ معناها: أنا الله الملك، و﴿الٓمٓرۚ﴾: أنا الله أعلم وأرى، و﴿الٓمٓصٓ﴾: أنا الله أعلم وأفصل، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾: كان هادياً وليّاً عالماً صادق الوعد.

ب. إنّها حروف اسم الله الأعظم، لو أُحسِن تأليفها لعُلِم.

ج. إنّها ترمز إلى مدّة أعمار الدول والأقوام، لكنّ تطبيقها لا يطّلع عليه إلّا المطّلع على أسرار الكتاب، كالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآله عليهم السلام.

وقد أورد بعض المفسّرين غير هذه الوجوه التي هي من الوجوه الضعيفة؛ لعدم تماميّة دلالة دليلها، أو لكونها وجوهاً استحسانيّة لا دليل عليها؛ لذا نعرض عن ذكرها، ونكتفي بما أوردناه.

الآية (2)

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

في الآية إخبار عن تلك الحروف بأنّها (ذلك الكتاب)، فالإشارة هي إلى الحروف، بوصفها مباني اللّغة. وإشارة البعيد هنا أشبه بقوله -تعالى-: ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌۖ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾[1]، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾[2]؛ فكأنّ المنقضي ذِكره بعيد. وقيل: ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ إشارة إلى القريب والبعيد[3].

والمراد بالكتاب هو القرآن، وهو بالأصل ما كُتِبَ فيه. وذُكِرَ لفظ الكتاب في القرآن الكريم 230 مرّة، بعضها أريد منه القرآن،

(1) سورة البقرة، الآية 68.
(2) سورة يوسف، الآية 37.
(3) انظر: الرازيّ، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، 1401هـ/1981م، ط1، ج2، ص14-15.

وبعضها الآخر أريد منه الرسالات السماويّة السابقة، وبعضها أريد منه غير ذلك من المعاني.

وقد وصَف الله الكتابَ في الآية بوصفين اثنين، هما:

1. إنّه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فهو ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]؛ أي لا يدخل إليه الريب، وهو الشكّ، ولا يمحوه الباطل، ولا تبطل حجّته.
2. إنّه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فالمتّقون هم الذين يطلبون الهداية، ويبتغون الوصول إلى ما عند الله، فهو هدى لهم، يستنيرون بنوره، ويهتدون بهديه، فيصلون به إلى حيث يريدون من الصراط والرضوان.

قال -تعالى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[2]. التقوى تتفرّع على المعرفة، فكيف تكون سبباً للمعرفة؟

والجواب: إنّهم محفوفون بهدايتين: هداية أولى بها صاروا متّقين، وهداية ثانية أكرمهم الله بها بعد التقوى[3].

وقد ذُكِرت مراتب ثلاث للوصول إلى تحصيل مَلَكة التقوى، وهي:

أ. معرفة الله حقّ معرفته.

ب. الخوف من الله (إذا عَرف الإنسان ربّه حقّ المعرفة، هابه وخافه).

(1) سورة فصّلت، الآية 42.
(2) سورة الطلاق، الآية 2.
(3) انظر: الطباطبائيّ، العلامة محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط، ج1، ص44.

ج. العمل بما يستوجب النجاة (وإذا خافه، عمل بما يستوجب النجاة).

فالتقوى تُحدِث عند الإنسان مَلَكةَ مُلازَمَةِ العمل، ويترتّب عليها آثار كثيرة، منها: زيادة الهدى.

وقد وصفت الآيات اللاحقة في هذه السورة المتّقين بخمس صفات، هي:

- الإيمان بالغيب.
- إقامة الصلاة.
- الإنفاق ممّا رزق الله.
- الإيمان بما أنزل الله على أنبيائه.
- الإيمان بالآخرة يقيناً.

الآية (3)

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾:

الابتداء بوصف المتّقين وبيان أحوالهم. وأوّل هذه الأوصاف أنّهم يؤمنون بالغيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

والإيمان هو اعتقاد راسخ في القلب يبعث على الاطمئنان. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان**»[1].

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبرّ الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، 1403هـ.ق/1362هـ.ش، لا. ط، ص178.

ولعلّ جعل الإقرار اللسانيّ واللوازم العمليّة من الإيمان، مع أنّه اعتقاد في القلب، هو من باب التنصيص على أنّ المعرفة لا تصبح إيماناً ما لم يترتّب عليها اللوازم العمليّة من الإقرار والعمل.

ولذا ورد في كثير من الروايات المأثورة تفسيرُ الإيمان بالعمل، منها:

1. ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يُكمِل عبدٌ الإيمان بالله حتّى يكون فيه خمس خصال: التوكّل على الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والصبر على بلاء الله. إنّه من أحبّ في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان**»[1].
2. وما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الإيمان أن يُطاع الله فلا يعصى**»[2].

والغيب مقابل الشهادة، وهو ما لا يتناوله الحسّ البشريّ، فالغيب هو الله -تعالى- وآياته الكبرى، ومنها الوحي؛ وفي بعض الروايات تطبيق على الإيمان بقيام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف[3].

وإنّما كان الإيمان بالغيب فضيلة؛ لأنّه انطلاق في أفق الإدراك العقليّ لما هو غائب عن الحواسّ؛ وبذلك يتميّز الإنسان عن

(1) المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج74، ص177.
(2) الكلينيّ، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، مطبعة حيدري، طهران، 1365هـ.ش، ط4، ج2، ص33.
(3) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1405هـ - 1363 ش، لا.ط، ص17.

سائر المخلوقات؛ فلو اقتصر على إدراك المحسوسات لكان كغيره من الحيوانات، ولم يكن للعقل أيّ فائدة، وقد خلق الله العقلاء ليعرفوه؛ أي ليعرفوا الغيب، فالعمل وَفق أغراض الخلقة فضيلة بلا شكّ.

ومع ذلك، فليس بمقدور الإنسان أن يصل إلى معرفة الغيب، إلّا ما أطلعه عليه عالم الغيب والشهادة، فيؤمن به لإخباره، أو يستدلّ عليه بآثاره، قال -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾[1]، ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[2]، ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[3]، ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾[4]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾[5]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[6].

فهذه الآيات تعنى بالإيمان وخشية الله ونصرته بالغيب؛ أي من دون رؤية حسّيّة لما وعد الله -تعالى-، وإنّما الإيمان به وهو غائب عن المشاهدة.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

وهو الوصف الثاني للمتّقين، فهم يعملون بلوازم ذلك الإيمان من عبادة الله -تعالى- مضافاً إلى الإيمان القلبيّ. وأبرز مصاديق

(1) سورة آل عمران، الآية 179.
(2) سورة المائدة، الآية 94.
(3) سورة مريم، الآية 61.
(4) سورة الأنبياء، الآية 49؛ سورة فاطر، الآية 18.
(5) سورة يس، الآية 11.
(6) سورة الحديد، الآية 25.

العبادة الصلاة، بل هي بابها وعمادها؛ لما ورد في القرآن الكريم والروايات المأثورة، منها:

- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].
- ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾[2].
- «**الصلاة حصن من سطوات إبليس**»[3].
- «**الصلاة بيت الإخلاص، وتنزيه عن الكبر**»[4].
- «**الصلاة قربان كلّ تقي**»[5].
- «**الصلاة عمود الدين**»[6].

وإقامة الصلاة هي أداؤها على وجهها، بجعلها قائمة دائماً حسب الأصول الشرعيّة لها.

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾:

فيها إشارة إلى أنّ الإنسان إنّما ينفق ممّا أعطاه الله، وليس ممّا ملكه بالأصل. فالإنسان لا يملك شيئاً، وهو أتى إلى الدنيا بغير

(1) سورة طه، الآية 14.
(2) سورة العنكبوت، الآية 45.
(3) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1، ص66.
(4) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج75، ص183.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص265.
(6) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ، ط1، ص739.

إرادة، وبلا حول ولا قوّة، وما يكسَبه فيها هو من عطاء الله ورزقه؛ سواء كان مالاً أو قدرة أو علماً أو معرفة.

والإنفاق ليس مطلق الصرف، وإنّما هو حيث أمر الله وندب إليه؛ لأنّ الحال تقتضي أن يكون المراد ذلك.

والإنفاق من رزق الله على الفقراء والمحتاجين، وفي سبيل الله، يكشف عن الإيمان، وعن الإقرار لله -سبحانه- بالفضل، وعلى نفسه بالضعف؛ وهو من وسائل الشكر، ودليل ضعف التعلّق بالدنيا.

وفي بعض النصوص تفسير للآية بغير الإنفاق الماليّ، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ممّا علمناهم يبثّون**»[1]، «**ممّا علّمناهم ينبئون، وممّا علّمناهم من القرآن يتلون**»[2].

الآية (4)

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:

في الآية استكمال لبيان صفات المتّقين، ومن صفاتهم: الإيمان بما أنزل الله -تعالى- على أنبيائه عليهم السلام دون تبعيض أو تفريق بين نبيّ وآخر. وهذا يفتح لنا المجال لطرح أسئلة عدّة، منها:

1. هل الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وبجميع ما أنزله الله -تعالى- يعني وجوب العمل بذلك كلّه، حتّى يكون ما جاء في الرسالات

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص87.
(2) القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ، ط3، ج1، ص30.

السابقة ممّا يجب الالتزام به؟! وإذا كان كذلك، فما العمل في صورة التعارض أو التناقض؟

والجواب: يكمن في أنّ الواجب هو الإيمان والتصديق بأنّ ما أنزله الله -تعالى- هو نازل من عنده، دون تفريق بين نبيّ وآخر على مستوى الإيمان والتصديق، وهذا يصلح أن يكون تعريضاً بالذين: ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾[1].

2. هل الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وما أُنزل عليهم يستلزم الإيمان والتصديق بما هو موجود بين يدي أتباع الديانات السابقة، كاليهود والنصارى؟

والجواب: كلّا؛ لأنّ ما يجب الإيمان به هو الذي ثبت أنّه أنزله الله -تعالى-، وما لديهم من كتب وشرائع عِيث بها فساداً، وحُرّفت. فنحن نؤمن بما أُنزل، ونبحث عنه (على مستوى المصداق والموضوع)، وممّا أنزل أيضاً أنّ هذه الرسالة (المحمّديّة) هي الخاتمة والناسخة للعمل بالشرائع السابقة.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:

على الرغم من أنّ المطلوب هو تحصيل اليقين بالآخرة، ولكنّ الظنّ، بل الاحتمال -أيضاً- يُنجِّز العمل على الإنسان، من باب الاحتراز، ودفع الضرر المحتمل (على أقلّ تقدير)، لكنّ المتّقين هم أهل اليقين، لا يشكّون في أنّهم قائمون بعد الموت لحياة جديدة ونشأة أخرى، فيها النشر والحساب، والثواب والعقاب، والجنّة

(1) سورة البقرة، الآية 91.

والنار، والنعيم والجحيم، وهي حياة لا غَول فيها ولا تأثيم، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الآية (5)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

استكمال لبيان صفات من تقدّم ذِكْرهم؛ وهم المتّقون؛ أهل الصفات الخمسة المذكورة، وهم نتيجة اتّصافهم بهذه الصفات أصبحوا موضوعاً للحكم عليهم بحكمين: إنّهم على هدىً من ربّهم، وإنّهم المفلحون؛ فهم على هدىً؛ أي على الطريق الصحيحة الموصِلة إليه -تعالى-، ويقابله طريق الضلال والضياع الذي لا يصل بصاحبه إلى مقصد، وإنّما يؤدّي به إلى الهاوية.

وهذا الهدى هو من ربّهم؛ لأنّ الهداية من الله إلى وجه الحقيقة، وكلّ هداية تعود إليه، فإذا نسب إلى غيره، فهي مجاز أو وسيلة سخّرها الله ونصّبها لهذه الغاية.

والمفلحون هم الفائزون؛ لأنّ الفلاح هو النجاح والفوز، ولا فلاح على الحقيقة إلّا هذا الفلاح، وهو الفوز برضاه -تعالى- وبالقرب منه، وما عدا ذلك فهو وهم وخيال.

وقد وردت هذه الصفة ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ اثنتي عشرة مرّة في القرآن، بصيغة الجمع، وبصيغة ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ أو ﴿يُفۡلِحُونَ﴾ عشرين مرّة، وبصيغة الفعل المسند إلى مفرد ﴿أَفۡلَحَ - يُفۡلِحُ﴾ ثلاث عشرة مرّة.

ويستفاد من هذه الآية أنّ الله -تعالى- جعل الفلاح صفة أو عاقبة لجماعة اتّصفوا بأمور:

1. الصفات الخمسة المتقدّمة للمتّقين[1].
2. ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾[2].
3. ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3].
4. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[4].
5. ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[5]
6. ﴿يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾[6].
7. ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾[7].
8. ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[8].
9. ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾[9].

---

(1) سورة البقرة، الآيتان 3-4.
(2) سورة آل عمران، الآية 104.
(3) سورة الأعراف، الآية 8.
(4) السورة نفسها، الآية 157.
(5) سورة التوبة، الآية 88.
(6) سورة النور، الآية 51.
(7) سورة الروم، الآية 38.
(8) سورة لقمان، الآية 4.
(9) سورة المجادلة، الآية 22.

10. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

11. وغيرها من الصفات الواردة في القرآن بعد ذِكْر عاقبة الفلاح: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ (الخمر)، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾.

وكلّها صفات وردت في الآيات الشريفة من سورة البقرة، بنحو أو بآخر.

الآية (6)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

في هذه الآية، وفي الآيات اللاحقة لها، بيان لصفات الطائفة الثانية من الناس المقابلة للمتّقين؛ وهم الذين كفروا وجحدوا بآيات الله. ويَرد الكفر على خمسة أوجه، هي:

1. كفر الجحود بالربوبيّة مع العلم.
2. كفر الجحود بالربوبيّة دون علم.
3. كفر بترك ما أمر الله به: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2].

(1) سورة الحشر، الآية 9؛ سورة التغابن، الآية 16.
(2) سورة البقرة، الآية 85.

4. كفر البراءة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ﴾[1].
5. كفر النعم: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[2]، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3].

والكفر الوارد في الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو الوجه الأوّل من الوجوه المتقدّمة؛ يعني الذين جحدوا، وثبتوا على الكفر، فتمكّن من قلوبهم. ولا يبعد أن يكون المراد: الذين كفروا بعد أن بيّن لهم الرسول ﷺ وقدّم لهم من الدلائل والبراهين ما أقام به الحجّة عليهم؛ وهم صناديد قريش، وكبراء مكّة. ويؤيّده عدم إسناد ذلك إلى الكفّار أو الكافرين، حيث أُسند إلى الذين كفروا، وهؤلاء (يعني كفّار مكّة) كفروا كفرانَ جحودٍ، ولم تعد تنفع معهم الآيات، ولا الإنذار، ولا إقامة الحجج، فهم لا يؤمنون.

ولا يصحّ تعميم ذلك لكلّ كافر؛ لأنّه ينسدّ معه باب الهداية والإيمان!

ولا يعني ذلك سلب الثمرة ونفي الجدوى من قيام الرسول ﷺ بالإنذار والدعوة إلى الرسالة؛ لأنّ في فعله ﷺ إقامة حجّة بالغة عليهم، وهي من شروط التكليف والحساب والجزاء. والإخبارُ عنهم بذلك متأخّراً عن وقوع الإنذار ليس من باب اللّوم، وإنّما من باب التطمين للرسول ﷺ بأنّه قد أدّى ما عليه، وبالغ في الاحتجاج، وأنّ المانع إنّما هو من قِبَل أنفسهم، حتى لا يشعر النبيّ ﷺ بالتقصير والمسؤوليّة بعد ذلك.

(1) سورة الممتحنة، الآية 4.
(2) سورة النمل، الآية 40.
(3) سورة إبراهيم، الآية 7.

ثم بيّن -تعالى- أنّهم لا ينفعهم الإنذار، ولا يقرّبهم من الإيمان بفعل الختم على قلوبهم، كما تعلّل ذلك الآية اللاحقة.

الآية (7)

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾:

نسب الله -تعالى- فعل الختم إلى نفسه، بينما أطلق الغشاوة دون نسبة، ولعلّ في ذلك إشارة إلى أنّهم بين حجابين يحولان دون رؤية الحقّ وقبوله؛ وهما: حجاب من أنفسهم، وحجاب من الله -تعالى-، جعله الله نتيجة فعلهم وعنادهم وجحودهم ومكابرتهم.

والختم هو كالطبع، ومعناه الإغلاق. وقد ورد الطبع على القلوب إحدى عشرة مرّة في القرآن الكريم، وأشارت أغلب الآيات في هذا السيق إلى أنّ الطبع يؤدّي إلى الجهل وعدم التفقّه، وذلك كما في قوله -تعالى-:

- ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].
- ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[2].
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[3].

والختم بمعنى الإغلاق.

(1) سورة التوبة، الآية 93.
(2) السورة نفسها، الآية 87.
(3) سورة المنافقون، الآية 3.

وقيل: ختم الله على قلوبهم بأنْ وسَمها بِسِمة يعرفها من يشاء من الملائكة، بحيث إذا نظروا إليها عرفوا بأنّ أصحاب هذه القلوب لا يؤمنون. والنتيجة واحدة؛ لأنّ الختم بناءً على المعنى الأوّل، هو كناية عن الحجاب المانع من الحقّ، وأمّا بناءً على الثاني، فيفصّل بأنّ الختم هو تخلّي الملائكة وخذلانهم، نتيجة السِمة التي وسم الله -تعالى- قلوبهم بها، وكلا المعنيين يؤدّي الغرض نفسه.

والقلب في القرآن هو مركز الإدراك المؤثّر، الذي يحرّك الإنسان وينتج عملاً، فقد يدرك الإنسان بعقله شيئاً، لكنّه يجده منفصلاً عنه، غير مرتبط بذاته ووجدانه وعاطفته، فلا يؤثّر في جوارحه، ولا ينتج إرادة، بينما يدرك أموراً أخرى بقلبه، فيجد لديه الدافع والإرادة للفعل، بحسب ذلك الإدراك؛ ولذا كان الإيمان عقدة في القلب.

وقد تناولت الآية وصف حال قلوب هؤلاء الكفّار وأسماعهم وأبصارهم، كما في آيات أخرى؛ وذلك أنّ الأسماع والأبصار هي وسائل إحساس، وهي بوّابة القلب لإدراك العالم الخارجيّ الحسّيّ وتعقّله.

فقد أُغلقت مداخلُ قلوبهم بسبب كفرهم وجحودهم، كما أغلقت القلوب، فباتوا يسمعون ولا ينتفعون بما يسمعون، ويرون دون أن تنفعهم الرؤية؛ فهم كمن لا يسمع، ولا يبصر.

والغشاوة هي غطاء يمنع الرؤية، ويحول دون الإبصار.

وما ذكره الباري -عزّ وجلّ- من حال الذين كفروا في الدنيا من

الختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، ومصيرهم يوم القيامة بأنّ لهم عذابٌ عظيمٌ، ينسجم مع مستوى عنادهم وكفرهم.

الآية (8)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾:

تتناول هذه الآية والآية اللاحقة حال المنافقين، وهم الطائفة الثالثة من الناس بعد المؤمنين المتّقين، والكافرين الجاحدين. وقد تعرّض القرآن الكريم لذِكْر المنافقين في عددٍ من السور المدنيّة؛ إذ إنّ ظهور هذه الطائفة من الناس وانتشارها وتأثيرها في المجتمع، إنّما حصلت في المجتمع المدنيّ، بعد أن أعزّ الله المؤمنين وقويت شوكتهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

مِن: للتبعيض، وهي هنا للتقليل، وهم فئة من الناس لم ينسبهم القرآن لا إلى الكافرين ولا إلى المسلمين، وهم الذين يقولون بألسنتهم آمنّا، فإيمانهم باللسان؛ أي بالقول، ولكنّهم غير مؤمنين على الحقيقة؛ لأنّ قلوبهم غير معتقدة بشيء من ذلك، وهذا يؤيّد أنّ الإيمان بالقلب. واللسان يخبر عن تلك العقيدة القلبيّة بالقول، فيكون صادقاً، وإلّا فالقول من دون اعتقاد يكون كذباً، كما ورد بيان ذلك في قوله -تعالى-: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[1]، حيث حكم الله عليهم بالكذب، على الرغم من أنّ مضمون الشهادة

(1) سورة المنافقون، الآية 1.

حقّ؛ لأنّهم بشهادتهم يدّعون أنّهم يعتقدون بذلك؛ أي يشهدون على ما في قلوبهم من عقيدة، وهي شهادة كاذبة؛ لأنّه لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فتكذيب القرآن لهم تكذيب مُخبِريّ وليس تكذيباً خبريّاً.

الآية (9)

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾:

الخدع: هو إخفاء الشيء مع إظهار غيره، والخداع: إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه. والعرب تسمّي من أظهر بلسانه خلاف ما في قلبه، لينجو ممّا يخافه، مُخادعاً لمن تخلّص منه بما أظهر له. وسمّي المنافق مخادعاً؛ لأنّه يتوهّم أنّه بإظهار الإيمان بالقول واللسان، وإخفاء حقيقة اعتقاده، ينجو من المؤمنين، ومن الحكم عليه بالكفر، فهو يخدع المؤمنين، ويتوهّم أنّه يخدع الله أيضاً؛ لأنّه غافل عن أنّه -تعالى- يعلم ما يسرّون وما يعلنون، وأنّه مطّلع على ما في الصدور؛ ولذا عبّرت الآية بأنّهم بفعلهم هذا لا يخدعون الله، وإنّما يرتدّ الأمر عليهم، فهم بالنتيجة لا يخدعون -واقعاً- إلّا أنفسهم؛ لأنّ الذي يراد إخفاء الواقع عنه مطّلع على الواقع دون شعور المخادع، فكأنّه هو المخدوع بفعله، وهو الضحية في النتيجة، فهو المتضرّر، وهو الذي سيسقط في مهاوي الهلكة بفعل ذلك، بحيث يرتدّ خداعه على نفسه، كمن ينْصِب كميناً لعدوّه، ثمّ يقع فيه نتيجة اكتشاف العدوّ له.

مضافاً إلى أنّهم في النتيجة، وإنْ تمكّنوا من إخفاء أمرهم عن المؤمنين ردهاً من الزمن، ولكنّهم صائرون إلى يومٍ يكشف الله -تعالى- فيه ما أخفوه، ويظهر ما أسرّوه في أنفسهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

فهم غير ملتفتين إلى مآل أمرهم، وأنّهم ساقطون في الكمين الذي نصبوه بأنفسهم، وأنّ أمرهم لا يخفى على الباري -عزّ وجلّ-.

وقد كرّر الله ذِكْر المنافقين في كثير من السور؛ كالبقرة، وآل عمران، والمائدة، والنساء، والأنفال، والتوبة، والعنكبوت، والأحزاب، والحديد، والحشر، والمنافقين، والتحريم، تأكيداً على خطورة هذه الطائفة من الناس، وتحذيراً للمؤمنين من مكرهم وكيدهم.

الآية (10)

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾:

النفاق هو مرض قلبيّ، ينتج عن انحراف في الرؤية عن الوضع السليم؛ فمرض الجسم سقمه، ومرض القلب حالة من الانحراف، وهي حالة غير طبيعيّة. ويكمن الفرق بين مرض الجسد ومرض القلب في أنّ مرض الجسد يحصل نتيجة التأثّر والانفعال بالعوامل الطبيعيّة غير المناسبة لصحّة الجسد أو الإصابة بآفة، وأمّا مرض القلب فلا ينشأ من ذلك، بل ينشأ من الشكّ، والتربية الفاسدة، والتعلّق بالدنيا الدنيّة. ومرض القلب أخطر من مرض الجسد؛ لأنّ الثاني يشفى بالعلاج المعروف، وأمّا مرض القلب، فلا تشفيه العقاقير ولا الأدوية، وإنّما يُشفى بالعلم، واليقين، والتربية الصالحة، وهو أمر يحتاج إلى علاج طويل، وإرادة وعزيمة من المريض نفسه.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾:

توصيف لحال المنافقين ونفاقهم، بأنّه كان يزداد مع نزول الآيات؛ لأنّ المكابرة والإنكار مع كثرة الدلائل تصبح أشدّ. ومثله: قوله -تعالى-: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾[1]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾[2]. فالنفاق مع الاستمرار يزيد الشقّة، وإذا زادت الشقّة زاد الابتعاد والانحراف؛ وهو زيادة المرض.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾:

فالعذاب الأليم هو ما ينتظرهم يوم القيامة بسبب كذبهم. فهم يكذبون بادّعاء الإيمان، ويكذِّبون بالنبيّ ﷺ وإنْ لم يُظهِروه بألسنتهم. وفي الآية إشارة إلى أنّ الكذب هو سبب هلاكهم، مع أنّهم لجأوا إليه من أجل إخفاء واقعهم؛ دفعاً للهلاك عنهم. فلعلّ العذاب الأليم -هنا- جزاءٌ لكذبهم فقط، وهو غير العذاب الذي يستحقّونه نتيجة كفرهم ونفاقهم.

الآية (11)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾:

إنّ لأهل النفاق شخصيّتين: واقعيّة تنسجم مع كفرهم،

(1) سورة نوح، الآيتان 5 - 6.
(2) سورة التوبة، الآيتان 124-125.

وظاهريّة تسعى إلى مجاراة الظاهر الإيمانيّ لهم حسب دعواهم، وهذا ما يجعلهم بحالة غير طبيعيّة؛ لأنّ أعمال الإنسان -عادة- تكون نتائج طبيعيّة لقناعاته، واستجابة لما يجده في نفسه من دوافع وجدانيّة. والمنافق يتكلّف التظاهر بالأفعال والصفات، بحيث تبدو غير طبيعيّة، وأحياناً لا يلتفت إلى أنّه يستجيب لواقع اعتقاده في بعض أفعاله، فيَظْهَر ما كان يُخفيه.

وتتناول هذه الآية بعض هذه الأفعال؛ وهي الفساد في الأرض. وأشدُّ الفساد إثارةُ الفتنةُ.

ويبدو أنّ الفساد في الأرض -هنا- هو نتيجة طبيعيّة لحالة النفاق، فالمنافقون يستجيبون لواقع حالهم. والفساد هو كلّ ما يخالف الصواب، وكلّ ما يغيّر الأشياء عن طبيعتها السليمة وحالتها التي أرادها الله لها.

والإفساد هو إحداث الفساد، كفساد اللّبن وفساد الطعام، وكذلك الفساد الاجتماعيّ هو ما يأتي على خلاف النظام السليم للمجتمع، فكلّ خروج عن النظام الطبيعيّ للإنسان والمجتمع والدين والمخلوقات، فهو فساد.

وإفساد هؤلاء في الأرض من جهة، هو بإثارتهم الفتن بين الناس، وإخلالهم بالنظام العامّ، وتثبيطهم المسلمين عن نصرة الرسول ﷺ، وإثارتهم أجواء القلق والخوف من الأعداء، وأمثال ذلك.

وباختصار: الإفساد في الأرض هو العمل فيها بما نهى الله عنه،

وتضييع ما أمر الله بحفظه، كما قال -تعالى- حاكياً عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[1]؛ أي بعصيان أمر الله ومخالفته.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾:

ويُحتمل في مقولة المنافقين هذه وجهان:

1. إنكارهم الدخول في عداد المفسدين في الأرض كذباً، وادّعاؤهم أنّهم على الصلاح، مع علمهم بخلاف ذلك.
2. إنّهم لا يرون في فعلهم إفساداً، بل إصلاحاً، وذلك لانعدام البصيرة لديهم، فهم لا يرون الأمور على ما هي عليه. فما يراه المسلمون فساداً يراه المنافقون صلاحاً. وهذا المعنى يناسب سياق الآية.

وعلى كلّ حال، فإنّ كثيراً من أهل النفوذ في عصرنا، وفي كلّ عصر من العصور، تنطبق عليهم هذه الآية، من الذين يعملون وَفق مصالحهم الخاصّة، ويتّبعون شهواتهم، وخاصّة في الحكم، حيث يستفيدون من مواقعهم من أجل الاستغلال، والسيطرة، ومصادرة الحرّيّات، والتعدّي على الحقوق، ثمّ يغلِّفون سياساتهم وأفعالهم بشعارات الصلاح، والدفاع عن حقوق الإنسان، والديمقراطيّة، والحرّيّات العامّة، وأمثال ذلك. فقد تُشَنّ الحروب وتصادَر الثروات تحت عنوان الإصلاح، بينما هي في الواقع من أبرز مصاديق الإفساد في الأرض. وما تفعله أمريكا والكيان الصهيونيّ واضح للعيان.

(1) سورة البقرة، الآية 30.

الآية (12)

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾:

يخبر الباري -عزّ وجلّ- عن المنافقين بأنّهم هم المفسدون، مع التأكيد والحصر، ليبيّن أنّ دعواهم الصلاح هي دعوى باطلة، ولكنّهم لا يشعرون بواقع حالهم. وللتأكيد على هذا الأمر جاء التعبير في الآية بـ:

﴿أَلَآ﴾: لإفادة التنبيه. ويستفتح بها الكلام تمهيداً لما يأتي بعدها من حكم، أو إنكار، أو ما شابههما.

﴿إِنَّهُمۡ﴾: لإفادة التأكيد.

﴿هُمُ﴾: ضمير الفصل، لإفادة التأكيد أيضاً.

﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾: التعريف فيها لإفادة الحصر، وربّما كان ذلك تجوّزاً؛ لزيادة التأكيد.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾: ونكتة عدم شعورهم ناشئة من فساد بصائرهم، فهم يرون الأمور بخلاف الواقع، ويقيّمون الحال على أساس قلوبهم المريضة، ونفوسهم الحاقدة المليئة بالنفاق. ونرى أمثال هؤلاء في كلّ عصر.

وتتعرّض هذه الآية لموضوع مهمٍّ جدّاً ينبغي أن نلتفت إليه، وأن نحرص على معالجة أنفسنا لكي لا نقع فيه، فإنّ الثقافة العالية والعلوم الواسعة لا تمنع الإنسان من اضطراب الرؤية وفساد النظرة، إذا لم تترافق تلك العلوم والثقافات مع الإخلاص والتقوى وطهارة النفس، فإنّ اتّباع الشهوات أو حبّ الدنيا يعمي ويصمّ.

الآية (13)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾:

صدْر الآية حكاية دعوة موجّهة إلى المنافقين، ويُحتمل فيها وجهان:

1. إنّ ما يظهر منهم يكشف عن كونهم لم يؤمنوا إيماناً ثابتاً كاملاً، فيقال لهم: آمَنوا كما آمن الناس الذين آمنوا برسول الله ﷺ. وفيه إشارة إلى انكشاف أمرهم، ولو بنحو نسبيّ.
2. إنّ المراد من الإيمان هنا التسليم الكامل لأوامر الرسول ﷺ، وقبول ما يصدر عنه في مجالات الحرب، وتنظيم المجتمع، وسياسة الدولة. فهم لا يقبلون ذلك، ويكثرون من الاعتراض، ويشكّكون في صواب الرأي الصادر عنه، فيقال لهم: لماذا لا تسلّمون بذلك كما سلّم به غيركم من المؤمنين.

وعلى الوجهين يجيب المنافقون باتّهام المؤمنين بأنّهم جهّال سفهاء، ويزعمون أنّهم أهل الرأي والنظر، وبذلك يكابرون ويصرّون على مواقفهم؛ لظنّهم بأنّها صادرة عن الرأي الصائب والنظرة الحكيمة لديهم، في حين أنّ بقيّة الناس يقبلون ويؤمنون بما يُملى عليهم؛ لجهلهم وسفههم. وهم بذلك الموقف يصبحون سفهاء جهّالاً؛ نتيجة عدم علمهم، ولفساد بصيرتهم، فيتوهّمون الباطل حقّاً، والخطأ صواباً، والانحراف استقامة.

الآية (14)

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾:

الآية بيان لحال المنافقين، حيث إنّهم يُظهرون الإيمان بأفواههم، فيقولون آمنّا، خداعاً للمؤمنين -كما تقدّم-، ولكنّهم عندما يلتقون أصحابهم بعيداً عن الأنظار يصرّحون بواقعهم.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾:

خلا به، وخلا إليه: إذا انفرد به دون غيره؛ فكأنّه فرغ عن الناس ليتوجّه إليه فقط. وهؤلاء المنافقون إذا اجتمعوا بشياطينهم، بعيداً عن أعين المؤمنين وأسماعهم، ففرغوا ممّا يمنعهم من التعبير عن واقعهم، وانتفت حاجاتهم إلى النفاق وإظهار الإيمان؛ عندئذ يفصحون عن دخيلة نفوسهم وواقع حالهم.

والشياطين جمع شيطان. وأصل الشيطان من شَطَنَ إذا بَعُدَ، والشَّطون: البعيد، والشيطان: المتمرّد. سُمّيَ شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله جميع بني جنسه، وبعده عن الخير والصواب.

وقيل: المراد بشياطينهم أصحابهم. ولعلّ المراد بشياطينهم هم رؤوس النفاق وكبراؤهم الذين يوحون إليهم بالكفر والنفاق. وهذا المعنى هو الأوفق.

﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾:

أي نحن على طريقتكم ملازمون لكم فيها، ومتابعون لكم عليها، أو مرافقون لكم.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾:

إنّما تفيد الحصر؛ أي لسنا نحن سوى مستهزئين. والاستهزاء: السخرية والاستخفاف. وبما أنّ الحصر يفيد نفي شيء وإثبات شيء آخر على نحو الحصر والانفراد، فالمنفيّ هنا هو الإيمان، وصدق ما يُظهرون من ألفاظ عند لقاء الذين آمنوا، وإثبات أنّ ذلك إنّما هو على وجه السخرية والاستهزاء ليس إلّا، ما يدلّ على أنّ النفاق ليس من الخوف فحسب، بل هو بدافع المزايدة على المؤمنين، سخريةً واستهزاءً.

الآية (15)

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾:

ردٌّ عليهم بأنّ ما يفعلونه لن يضرّ الله شيئاً، ولا الذين آمنوا، بل إنّ الله -تعالى- مطّلع على سرائرهم، يردّ كيدهم إلى نحورهم، ويجعل سخريّتهم تنقلب عليهم.

وإنّما نسب الاستهزاء إليه -تعالى-، مع أنّه لا يجوز عليه حقيقةً؛ لأنّ المراد منها الجزاء على الهزء. وقد سمّى القرآن الكريم الجزاء باسم الفعل المقتضي في أكثر من موضع، كما في قوله -تعالى-:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1].

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2].

(1) سورة الشورى، الآية 40.
(2) سورة البقرة، الآية 194.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[1].

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[2].

فكأنّهم لمّا فعلوا شيئاً رجاء تحقيق مكر أو سوء ما، ارتدّ الأمر عليهم، وأصابهتم عاقبة أمرهم سوءاً ومكراً!

﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾:

أي يمهلهم ويؤجّل عقوبتهم. فالإمداد يكون بإطالة العمر والقدرة، وهم في طغيانهم وتجاوزهم مستمرّون في الضلال والتيه؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- أمهلهم، لا لأنّهم معجزون له: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾[3].

الآية (16)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾:

الآية إشارة إلى المنافقين الذين تقدّم ذِكْرهم في الآيات السابقة. والإشارة للبعيد، على الرغم من أنّهم ذُكِروا عن قربٍ، لإفادة التحقير والإبعاد عن ساحة الخطاب.

والاشتراء هو ما كان فيه تبادل. شرى: باع، واشترى: ابتاع. وفيه أخذ وإعطاء بدل. وقد كان الهدى باختيار هؤلاء المنافقين وفي متناول أيديهم، لكنّهم أعرضوا عنه، واختاروا الضلالة، فكانوا كمن

(1) سورة آل عمران، الآية 54.
(2) سورة النحل، الآية 126.
(3) سورة آل عمران، الآية 178.

باع الهدى بالضلال، أو ابتاع الضلالة بالهدى. والفرق بين الاثنين بالاعتبار، فلم يكن غرضهم التخلّف عن الهدى، بل كان غرضهم التعلّق بالضلالة؛ فلذا قُدِّم وجُعِل هو المشترى، وجُعِل الهدى ثمناً.

والبيع والشراء عمل تجاريّ يُطلب فيه الربح، لكنّ هؤلاء لم يربحوا شيئاً؛ لأنّ الضلالة ليست شيئاً يُطلَب، وليست شيئاً له قيمة، حيث لم تربح تجارتهم ومبادلتهم، بل خسرت؛ فلم يَسلم لهم رأس مالهم، وما كانوا مهتدين.

والتعبير بالتجارة والبيع والشراء في مجال الاختيار والاستغناء في أمور الدين كثير في القرآن، كما في قوله -تعالى-:

- ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾[1].
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[2].
- ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾[4].
- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾[5].

وغيرها آيات كثيرة...

(1) سورة البقرة، الآية 245؛ سورة الحديد، الآية 11.
(2) سورة فاطر، الآية 29.
(3) سورة الصف، الآيتان 10-11.
(4) سورة التوبة، الآية 111.
(5) سورة البقرة، الآية 207.

الآية (17)

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾:

المثل هو ما يُشبَّه به؛ للمثليّة بين المشبَّه والمشبَّه به، والمشاكلة بينهما.

والقرآن فيه كثير من الأمثلة، بلغت أكثر من 60 موضعاً. ويُعدّ التمثيل أحد وسائل الإفهام والتربية؛ لأنّه أقرب إلى الأذهان والقبول، وعادة ما يكون حسّيّاً مُعاشاً مألوفاً، فيُستخدم وسيلة لتقريب المعنى.

﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾:

الاستقياد: طلب الوقود، والسعي للحصول عليه بإحداث الشرارة وما شابهها. وفي الآية إشارة ظاهرة بأنّ النار ليست من فعل المنافق، وإنّما هي نتيجة محكومة بالسنن الكونيّة الإلهيّة؛ لأنّه لم يقل: أوقد، وإنّما ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾. ويبدو أنّ إضرام النار كان للحصول على النور وعلى الضوء اللازم.

ووجه التمثيل: إنّ الذي يعيش في ظلمة ظلماء، لا يميّز فيها شيئاً من شيء، ولا لوناً من لون، فإنّه يلجأ إلى إضرام النار للحصول على الضوء الذي يعينه على الرؤية، فكذلك الذي يعيش في ظلمة الحيرة، لا يميّز فيها بين خير وشرّ، ونافع وضارّ؛ فهو بحاجة إلى النور الذي يعينه على التمييز. وغاية الأمر أنّه هناك بحاجة إلى نور البصر، وهنا بحاجة إلى نور البصيرة. وذهاب نور البصيرة يترك

الإنسان في ظلمة الحيرة والضلالة، كما أنّ ذهاب البصر يبقي الإنسان في ظلمة حسّيّة.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾:

الظاهر أنّ المراد بالنور هو نور البصر؛ أي أعماهم، فلم يعد ينفعهم ما أوقدوا من نار، ولا ما أحدثوا من ضوء.

وقيل: المراد هو أنّ الله -تعالى- ذهب بنور الضياء الناشئ من النار؛ فأطفأها بريح أو مطر، وأخمدها، فلم يعودوا يهتدون لما حولهم؛ وفقاً للمرويّ عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**مثل هؤلاء المنافقين كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً أبصربها ما حوله، فلما أبصر ذهب الله بنورها بريح أرسلها فأطفأها، أو بمطر**»[1].

ما هو وجه التشبيه؟

قيل: إنّ المنافقين استفادوا من الإسلام في الدنيا، وحقنوا بذلك دماءهم، ولكنّهم بمجرّد موتهم يسلب الله منهم ذلك، ويتركهم في العذاب، فهم لا نور لهم في الآخرة، وما أظهروه في الدنيا يضمحلّ سريعاً.

والظاهر أنّ وجه التشبيه -بناءً على الوجه الآخر المتقدِّم- هو في زعمهم أنّهم طلاب هدىً، وهم في ذلك كمثل الذي استوقد ناراً ليهتدي بها، فجاء الهدى عبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشريعته الغرّاء، فأنارت الدنيا كما تضيء النار ما حولها، لكنّهم بكفرهم ونفاقهم ذهب نور

(1) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص130.

بصائرهم وقلوبهم، ولم يبقَ لهم نور في أنفسهم ليستفيدوا من نور الهداية، كمن أخذ الله بنور بصره فلم يعد يهتدي، على الرغم من توهّج النار حوله.

وقد استفدنا هذا المعنى من نسبة النور المأخوذ إليهم، حيث قال: ذهب الله بنورهم، وليس بنورها أو ضوئها؛ لأنّها أضاءت ما حوله، فهي تعطي الضوء، وهو إنّما يرى بنور البصر والبصيرة. ويؤيّد هذا المعنى قوله -تعالى-: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3].

مضافاً إلى ما روي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**يعني قبض محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم، وظهرت الظلمة؛ فلم يبصروا فضل أهل بيته...**»[4].

وهذا يتناسب تماماً مع السياق، ولا سيّما مع قوله -تعالى-: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

(1) سورة الإسراء، الآية 97.
(2) سورة الأعراف، الآية 198.
(3) سورة النور، الآية 40.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص380.

الآية (18)

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾:

﴿صُمُّۢ﴾: أي لا يسمعون الحقّ، وإنْ كانت لهم حاسّة السمع، ولكنّها لم تنفعهم.

﴿بُكۡمٌ﴾: أي لا ينطقون بالحقّ، وإن كانت لهم حاسّة النطق. وقيل: المسلوب هو الفؤاد.

﴿عُمۡيٞ﴾: أي لا يبصرون الحقيقة، وإنْ كانت لهم حاسّة البصر.

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، عن ضلالتهم وعماهم. وربّما كان على نحو الذمّ لهم.

الآية (19)

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مثال ثانٍ ضربه الله -تعالى- للمنافقين في إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، فهم كمن هو في صيّب من السماء فيه إعصار ومطر غزير، ومعه ظلمة. فالصيّب يضطرّه إلى الفرار والتخلّص، والظلمة تمنعه من ذلك، والمهولات التي تحيط به ترعبه.

الآية (20)

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

مثال آخر لبيان حال المنافقين، في محاولة تخلّصهم من المهولات التي تحيط بهم، فمثلهم كالذي يريد الاستفادة من البرق للتخلّص مع عدم انتفاعه به؛ لأنّه نور خاطف. فهم لا يحبّون الإيمان، ولا يجدون بدّاً من إظهاره. ونظراً إلى عدم موافقة قلوبهم لألسنتهم، فهم لا يستضيئون طريقهم، فلا يزالون يتخبّطون ويتعثّرون.

وفي المثالين تشبيه لنور الإيمان والهدى بالضياء والنور، ولكنّ الاستفادة من النور تتوقّف على وجود البصر، كما أنّ نور الإيمان يتوقّف على وجود بصيرة يستضاء بها، والمنافقون، لفقدانهم البصيرة، أشبه بالأعمى الذي لا ينفعه الضياء، أو الذي خطف النور بصره لشدّته، فلم يعد يُبصر.

ويمكن أن يُتصوّر الفرق بين المثالين على نحوين:

1. إنّ المثال الأوّل يصوّر حال المنافقين الذين انخرطوا في صفوف المؤمنين عن اعتقاد صادق، ثمّ تزعزعوا وكفروا ودخلوا في النفاق، بينما المثال الثاني يمثّل حال المنافقين الذين كانوا منذ البداية على النفاق، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم قطّ.
2. إنّ المثال الأوّل يتحدّث عن حالة الأفراد، بينما الثاني يجسّد

وضع الأجواء المخيفة المرعبة الخطرة التي تحيط بالمنافقين.

ومهما يكن، فإنّ المثالين يُبرِزان في أوضاع المنافقين أموراً، هي:

3. حال الحيرة والتخبّط والظلام الذي يعيشونه؛ لأنّهم لا نور لهم. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.
4. انقطاع الأسباب ووسائل الاهتداء التي يطلبونها؛ لتخلّيهم عن الحقّ ولعنادهم.
5. المصير السيّئ الذي ينتظرهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾[1].

الآية (21)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

العبادة: الطاعة التامّة مع التعظيم. وقد أمر الله – سبحانه- الناس بعبادته: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2].

(1) سورة الحديد، الآيتان 13-14.
(2) سورة يس، الآيتان 60-61.

فلماذا أمر الله -تعالى- بعبادته؟

العبادة هي الالتزام بطاعة الخالق الحكيم المدبّر من قِبَل الضعيف المملوك الفقير الجاهل. وفي هذا الالتزام علاجٌ للضعف، وسدٌّ للحاجة، وخروجٌ من الجهل؛ وبذلك يرتقي الإنسان ويتكامل، ويصبح قويّاً بقوّة الباري، وغنيّاً بعطاءاته، وعزيزاً بمنعته.

لذا، كانت غاية الخلق العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[1].

والفرق بين عبادة الخالق وبين عبادة غيره من المخلوقين، أنّ الأولى تعود ثمرتها على العبد نفسه، بينما الثانية تلبّي حاجة عند المعبود دون العبد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ عبادة الله -سبحانه وتعالى- هي مصداق التحرّر الحقيقيّ؛ لأنّها تُطلق العبد من أسر عبوديّة من لا يستحقّ العبادة، ومن يستغلّه، ويحدّ من قدراته، ويمنعه من الوصول إلى كماله؛ لذا كان العتق نصيب من قام بشرائط العبوديّة لله -تعالى-، ففي الرواية: «**من قام بشرائط العبودية أُهِّل للعتق**»[2].

ما هي شروط العبادة؟

ذُكِرت مجموعة من الشروط للعبادة، أبرزها:

1. اليقين؛ لما ورد في الروايات من أنّه: «**لا عبادة إلا بيقين**»[3]،

(1) سورة الذاريات، الآيتان 56-57.
(2) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص450.
(3) القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، مصر - القاهرة، 1383هـ - 1963م، لا.ط، ج1، ص105.

«نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ»[1]، **«أُعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه، فإنّه يراك»**[2].

2. التفقّه؛ لما ورد في الروايات من أنّه: **«لا عبادة إلّا بالتفقّه»**[3].

مراتب العبادة

ورد في الورايات بيان لمراتب العبادة، منها: ما روي عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: **«إلهي، ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»**[4]، حيث بيّن الإمام عليه السلام مراتب العبادة، وهي:

1. عبادة الخوف، أو عبادة العبيد.
2. عبادة الرجاء، أو عبادة التجّار.
3. عبادة الشكر والمحبّة، أو عبادة الأحرار.

---

(1) الشريف الرضيّ، محمد بن الحسن، نهج البلاغة (خطب أمير المؤمنين عليه السلام)، شرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، مطبعة النهضة، قم المقدّسة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ط1، ج4، الحكمة97، ص22.

(2) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1414هـ، ط1، ص525.

(3) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص234.

(4) ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط، ص 219.

إخلاص العبادة: التسليم لأمر الله

حفلت البشريّة بنماذج عبوديّة خالصة، جسّد فيها أولياء الله -تعالى- أخلص صور العبوديّة والتسليم المطلق لله -تعالى-، منها:

1. نموذج النبيّ إبراهيم عليه السلام وابنه النبيّ إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].
2. نموذج النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته**»[2].
3. نموذج الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الخُلَّص.

لماذا لا نجد لذّة العبادة؟

ورد في الحديث: «**كيف يجد لذّة العبادة من لا يصوم عن الهوى**»[3].

فحال من لم يجد لذّة العبادة كحال المريض، يُوضع أمامه الطعام اللذيذ فلا يجد فيه لذّةً؛ لنقصٍ فيه، كذلك المتعلّق بالدنيا وزينتها وزخارفها، لا يجد لذّة الانقطاع إلى الله -تعالى-؛ لأنّه مبتلى بأمور تحجب القلب عن الارتباط بالله!

(1) سورة الصافات، الآية 102.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص228.
(3) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص384.

سُئِلَ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما حقيقة العبوديّة؟ فقال: «**ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً؛ لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله، يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره الله به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوّله الله -تعالى- ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله -تعالى- أن ينفق فيه، وإذا فوّض العبد تدبير نفسه على مدبّره، هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله -تعالى- ونهاه، لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة، هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيّامه باطلاً؛ فهذه أوّل درجة التقى**»[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ العبادة لا تقتصر على الصلاة والصوم والحجّ، وإنّما تشمل كلّ طاعة وقربة، حتّى إنّ التفكّر في عظمة الخالق عبادة، وكذلك طلب العلم، والرزق الحلال، والجهاد في سبيل الله، ومعاملة الناس بالحسنى، ولين الكلام، وإفشاء السلام...

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾:

أي اعبدوا الذي له الربوبيّة الحقيقيّة، لا شريك له في ربوبيّته. والربّ هو المدبّر لشؤونكم، أصله من التربية، وهو المتكفّل بمصلحة الموجودات، وهو -تعالى- الربُّ بقولٍ مطلق، بينما يقال

(1) الطبرسي، علي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق: مهدي هوشمند، دار الحديث، 1418، ط1، ص563.

للمتكفّل بمصلحة أمرٍ خاصّ هو ربّه؛ كربّ العائلة، وربّ العمل، وربّ الدار...

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

بيان للربّ الذي يجب عبادته، وفيه إشارة إلى النعم التي تستوجب الشكر والعبادة. فأوّل نعمة وأهمّها نعمة الخلق؛ ولذلك بدأ بها، وهي نعمة تتجلّى فيها قدرة الله وعظمته وعلمه وحكمته وكرمه وجوده، فالذين يمتنعون من عبادة الله ومن الخضوع له غافلون عن عظمة الخلق، وعن الشعور باليد الإلهيّة المدبّرة والمقدّرة، وعن العطايا الإلهيّة التي لا تُعدّ ولا تحصى، وإلّا لما توانوا لحظة واحدة عن الطاعة والعبادة.

فهل يتنكّر الإنسان لصاحب نعمته من البشر؟! وماذا يفعل إذا سخى عليه شخص؟! ألا يشعر بالامتنان والاحترام؟! ألا يسوقه ذلك إلى المحبّة؟! ألا يدفعه ذلك إلى التقدير والتعظيم، وحتّى الطاعة عند تواتر النعمة؟! لماذا يستكبر هذا الإنسان الضعيف الفقير، الذي لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، عن عبادة خالقه ومدبّره والمنعم عليه والمنّان والمتفضّل والرحيم والرؤوف؟!

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

التقوى هي غاية العبادة التي أمر الله بها، والتقوى هي طريق النجاة، ودرب الكمال والسموّ.

الآية (22)

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءَ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

بعد ذِكْر نعمة الخلق، فرَّع -تعالى- عليها النعم اللاحقة؛ لأنّ الإنسان بعد خلقه يفتقر إلى ما يلائم حاله من البيئة ليعيش فيها، فكانت الأرض هي المكان المناسب التي جعلها الله -تعالى- مفروشة ليستقرّ عليها، وجعل فيها كلّ ما يحتاج إليه الإنسان لحياته واستمرارها.

يقول الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «**جعلها ملائمة لطبائعكم، موافقة لأجسادكم، ولم يجعلها شديدة الحماء والحرارة فتحرقكم، ولا شديدة البرودة فتجمّدكم، ولا شديدة طيب الريح فتصدع هاماتكم، ولا شديدة النتن فتعطبكم، ولا شديدة اللين كالماء فتغرقكم، ولا شديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم، ولكنّه -عزّوجلّ- جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به وتتماسكون، وتتماسك عليه أبدانكم وبنيانكم، وجعل فيها ما تنقاد به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم، فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم. ثمّ قال -عزّ وجلّ-: والسماء بناءً، سقفاً من فوقكم محفوظاً يدير فيه شمسها وقمرها ونجومها لمنافعكم..**»[1].

وقد ورد تفسير البناء بالسقف في قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾[2].

(1) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص142.
(2) سورة الأنبياء، الآية 32.

وسماء كلّ شيء أعلاه، وهو من السموّ، وهو العلوّ والارتفاع. وليس بالضرورة أن يكون السقف منبسطاً كسقوف البيوت، بل يصحّ كون الجوّ الذي فوقنا سقفاً لنا، وسماءً مرتفعة عالية بالنسبة إلينا، وإنْ كانت بالنسبة إلى غيرها ليست كذلك.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾:

بعد نعمة الخلق، ونعمة فرش الأرض ورفع السماء، يحتاج الإنسان إلى قوته وطعام يومه، فكانت نعمة إنزال المطر من السماء الذي يخرج الباري -عزّ وجلّ- به الثمر؛ ليكون رزقاً للناس.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

الأنداد جمع ندٍّ، وهو المثل والشريك والشبيه والمقابل والعديل، وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ﴾ يدلّ على أنّ الأنداد من جعل المشركين ومن أوهامهم، وإلّا فليس لها أيّ حظٍّ من الواقعيّة.

فجعلُ الأنداد يعني جعل الشركاء، وهو ما أطلق عليه اسم الشريك، وهو على أنحاء، فثمّة شرك العبادة الذي يكون باتّخاذ الأصنام وعبادتها، لكنّ الشرك لا ينحصر بها؛ إذ إنّ كلّ اعتقاد بأنّ ثمّة مؤثراً غيره -تعالى- أو خالقاً غيره أو معبوداً سواه فهو شرك..

وفي الرواية: «**من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان**»[1].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج6، ص434.

الآية (23)

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

هذه الآية من آيات التحدّي العامّ الخمس التي وردت في القرآن الكريم. وفي هذه الآية تحدٍّ وتعجيز للذين لم تطمئنّ قلوبهم إلى إلهيّة الوحي وصدق النبيّ ﷺ، بل ارتابوا في ذلك، وفيها مبالغة في التحدّي لهم عندما أُذِن لهم بأن يستعينوا بمن أرادوا، وأن يستدعوا شهداءهم من دون الله.

والتعجيز في الآية وغيرها من آيات التحدّي باقٍ مستمرّ على الرغم من مرور الزمن. والمقصود بـ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: القرآن الكريم والوحي. ووصف النبيّ ﷺ بـ﴿عَبْدِنَا﴾ هو وصف فيه كمال المدح والعناية؛ لأنّ نسبة العبد إلى نفسه -تعالى- إشارة إلى هذه العناية. وقد ورد في القرآن الكريم هذا المعنى مكرّراً، كقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾[1]. وجاء وصف الأنبياء عليهم السلام في أكثر من موضع بهذا الوصف: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[2]، ﴿عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾[3]، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[4]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[5].

(1) سورة الفجر، الآيات 27-30.
(2) سورة ص، الآية 41.
(3) السورة نفسها، الآية 17.
(4) سورة مريم، الآية 2.
(5) سورة الإسراء، الآية 1.

ووجه التعجيز -هنا- أنّ الذي يرتاب فيما نزل، ويزعم أنّه قول بشر، يفترض به أن يتمكّن بنفسه، أو بالاستعانة بغيره من أهل القدرة والخبرة، من الإتيان بمثله أو ببعضه، والعجز عن ذلك يشكّل برهاناً على كون القرآن من عند الله -تعالى-.

وضمير ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعود إلى القرآن، بدليل آيات التحدّي الأخرى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

وربّما قيل بعودة الضمير إلى النبيّ ﷺ؛ أي فأتوا بسورة من مثل النبيّ ﷺ، فيدخل في التحدّي خصوصيّة النبيّ من كونه أمّيّاً، والذي يُظهِر أنّ خصوصيّة أمّيّة النبيّ ﷺ هي لزيادة الحجّيّة وإبعاد الريبة، لكنْ في التحدّي لا مدخليّة لذلك، فالمهمّ هو الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة واحدة.

(1) سورة يونس، الآية 38.
(2) سورة الطور، الآيتان 33-34.
(3) سورة هود، الآية 13.

ولم يقتصر تحدّي القرآن على الإنس دون الجنّ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

إعجاز القرآن والسرّ فيه

قد يخطر في بال بعض الناس أنّ القرآن ورد وَفق أصول اللغة العربيّة وقواعدها، مستعملاً مفرداتها وأساليب العرب في التركيب، فكيف أمكن أن يكون القرآن الكريم معجزة كلاميّة؟!

وقد يدفع هذا التفكير المرء إلى الاعتقاد بأنّ سرّ الإعجاز ليس في القرآن نفسه، وإنّما في تعجيز البشر وصرف همّهم عن معارضته.

ولكنّ هذا التوهّم لا محلّ له، فهو يقلّل من عظمة القرآن ومن إعجازه، بل يخرج الإعجاز عنه. ويكفي في دفع التوهّم، الالتفات إلى أنّ كلام العرب قبل القرآن الكريم وبعده خال من أيّ مثال يعارض به القرآن، بل إنّ الذين عرفوا أسرار الكلام، وقفوا حائرين أمام عظمته، وأقرّوا بأنّه لا يشبه شيئاً من كلام العرب؛ ما يدلّ على أنّهم رأوا الإعجاز فيه، لا في امتناع مقابلته ومعارضته؛ فامتناع ذلك نتيجة للإعجاز، وليس سبباً له. ولو كان الإعجاز بصرف الهمم، لكان التحدّي بالركيك من الكلام أبلغ!

ويؤيّده ما روي من أنّ الوليد بن المغيرة عندما قرأ عليه الرسول ﷺ شيئاً من القرآن، قال لقومه: «فوالله، ما منكم رجل أعلم

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزه منّي، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. ووالله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنّه ليعلو ولا يعلى... هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره»[1].

وواقع الأمر، أنّ السرّ في إعجاز القرآن يكمن في بلاغته التي تختلف عناصرها عن كلّ ما يمكن أخذه من عناصر في كلام البشر. وتوضيحه: إنّ البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال، والمقصود به مقتضى حال المخاطب من جهة، والموضوع المراد إيصاله من جهة أخرى.

والقرآن:

1. جاء ليخاطب الناس كلّهم، على اختلاف مستوياتهم الاجتماعيّة والإدراكيّة والعلميّة.
2. جاء ليخاطب الناس في الأزمان والعصور كلّها، منذ عصر النزول حتّى قيام الساعة.
3. جاء يحمل موضوعاً شموليّاً: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾[2]، ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[3].
4. يضاف إلى هذه الأبعاد الثلاثة، أنّ النبيّ ﷺ عاش في الجزيرة العربيّة، ولم يتعلّم عند أحد على الإطلاق.

(1) الطبريّ، محمّد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م، لا. ط، ج29، ص195.
(2) سورة الأنعام، الآية 38.
(3) سورة النحل، الآية 89.

والقرآن، بخطاب واحد، يوصل في كلّ عصر، ولكلّ فرد من أفراد المخاطبين، ما ينسجم مع قدرته على التلقّي والتقبّل، دون أن يشعر بالغربة، أو يرى أنّه عاجز عن الفهم والاستفادة، ولو بالإجمال.

وهذا هو سرّ الإعجاز. لكن كيف يحمل الكلام الواحد هذا التعدّد المفروض في مستويات العرض، ومراتب الدلالة وشموليّتها؟

والجواب يكمن في ما عبّرت عنه نصوص الحديث الشريف، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن، وما من حرف إلّا وإنّ له تأويلاً**، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾»[1].

وروي -أيضاً- أنّ لكلّ بطن بطناً[2].

وما يصلح شاهداً على أنّ القرآن بنفسه له هذا التأثير في النفوس، وأنّه هو المعجز بنفسه، ما نقل في التاريخ من أنّ المشركين كانوا يمنعون الناس من المرور بقرب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا يشوّشون عليه عندما يرفع صوته بتلاوة القرآن.

نعم، ليس المقصود من البلاغة جزالة الأسلوب، وفصاحة الكلمات، ومتانة التركيب فقط؛ لأنّ هذا وحده ينطبق عليه ما قيل سابقاً من أنّه وَفق قواعد العرب، وإنْ كان لهذا -أيضاً- مراتب

(1) الهلاليّ الكوفيّ، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمّد باقر الأنصاريّ الزنجانيّ، نشر دليل ما، مطبعة نگارش، قم المقدّسة، 1422هـ ق/1380هـ ش، ط1، ص306.

(2) انظر: البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1370هـ - 1330 ش، لا. ط، ج2، ص300.

كثيرة، بما يميّز بعضها ويجعلها أرقى من سواها، ولكنّ البلاغة في ذلك تكمن -أيضاً- في الدلالة، وتنوّع المخاطبين في الخطاب نفسه، وشموليّة المعنى، هذا ما لا يمكن حصوله لبشر بأيّ شكل من الأشكال.

دلالة الإعجاز على صدق النبوّة

إنّ المعجزة من دلائل النبوّة؛ ولذا سأل الناس أنبياءهم على مرّ التاريخ الإتيانَ بالشواهد الخارجة عن قدرة البشر العاديّين، بوصفها شرطاً للإيمان والتصديق: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[1]، ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[3]، فهم كانوا يطَالبون بعلامة من مختصّات المرسِل تدلّ على صدق دعوى المرسل بالنبوة أو الرسالة والانتساب إلى المُرسِل.

﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

الشهداء هم الأعوان الذين يشهدون معهم في المواجهة، كقوله -تعالى-: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]، وفيها فتح باب الاستعانة بكلّ من يريدون، والاستشهاد بمن يشاؤون؛ مبالغةً في التعجيز.

(1) سورة الفرقان، الآية 21.
(2) سورة الحجر، الآية 7.
(3) سورة الفرقان، الآية 7.
(4) سورة يونس، الآية 38.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

في إنكاركم وارتيابكم، وإصراركم على أنّ القرآن من كلام البشر.

الآية (24)

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾:

لم تتمكّنوا من الإتيان بسورة من مثله.

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾:

إخبار بالعجز مسبّقاً، زيادةً في التحدّي والاستدراج؛ لأنّهم حريصون على تكذيب الرسول وإبطال حجّته.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾:

جواب الشرط، مترتّب على عدم الإتيان بالسورة والعجز عن ذلك، فإنّهم إذا لم يفعلوا، فليس أمامهم من حجّة ولا عذر في ترك التقوى.

وقد وُصفت النار بأنّ وقودها الناس والحجارة التي يُحَرقون بها، ويعذَّبون بالاصطلاء بها. وقيل: الحجارة هي الأصنام؛ لقوله -تعالى-: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1].

(1) سورة الأنبياء، الآية 98.

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

هُيّأت لعقابهم وعذابهم على إنكارهم وكفرهم.

الآية (25)

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

البشارة إخبار بما فيه مسرّة لأوّل مرّة. وقد قُرن عمل الصالحات بالإيمان، كما هو في عدد كبير من الآيات التي بلغت أكثر من 58 آية، للتنبيه والتأكيد على أنّ الإيمان الذي لا يقترن بالعمل الصالح ليس فيه ثمرة، كما أنّ عمل الصالحات دون إيمان ليس بذي قيمة، وهو الذي يظهر من قوله -تعالى-:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1].

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾[2].

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[3].

والجنّات جمع جنّة، وهي الشجر دون الأرض على ما قيل؛ لأنّ الأنهار لا تجري تحت الأرض، وإنّما تحت الشجر، ولكنّ ذلك وحدَه لا يكفي لحصر معنى الجنّة في الشجر، حيث إنّ التحتيّة نسبيّة،

(1) سورة النساء، الآية 124.
(2) سورة الأنبياء، الآية 94.
(3) سورة طه، الآية 112.

ويمكن إطلاقها باعتبار سطح الأرض الذي تقوم عليه الأشجار. فإذا كان النهر يجري في مكان أدنى مستوى فهو تحته، وهذا مستعمل في الخطابات العرفيّة، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[1]، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[2].

نعم، ربّما يستفاد من الآية الكريمة: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[3]، أنّ الجنّة مكوّنة من الشجر، وأنّها تتقوّم بها، وهي تمام مفهومها.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾:

يبدو أنّ ثمار الجنّة تشبه من حيث صورتها ونوعها ثمار الدنيا؛ لقوله -تعالى-: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي في الدنيا. وقيل: إنّ معناه هذا الذي وُعِدْنا به من قبل، ولكنّ هذا المعنى فيه تكلّف!

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾:

يشبه بعضه بعضاً. وقيل: التشابه في الاسم، لا في اللون والطعم، فلا يشبه ثمارَ الجنّة شيءٌ من ثمار الدنيا، في لون أو طعم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

روي أنّ الأزواج المطهّرة هنَّ اللاتي لا يحضن ولا يُحْدِثْنَ. وفي

(1) سورة الأنفال، الآية 42.
(2) سورة الأحزاب، الآية 10.
(3) سورة البقرة، الآية 266.

بعض الروايات تعميم الطهارة للبراءة من جميع العيوب والمكاره[1].

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

الخلود هو البقاء دون تغيير وفساد، فكلّ ما يتباطأ إليه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، وهم يستعملون هذا اللفظ لطول المكث، دون الدوام الذي لا انقطاع فيه.

والخلود في الجنّة هو البقاء فيها على الحالة التي هو عليها دون أن يعرض لها التغيير والفساد. وربّما كان هذا البقاء أبد الآبدين، لكنّه لا يستفاد من لفظ الخلود نفسه، بل من قرينة أخرى، كما في قوله -تعالى-: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾[2]، وهذا يشمل الخلود في الجنّة وفي النار، على حدّ سواء.

الآية (26)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

الآية بصدد الردّ على من استنكر ضرب الله -تعالى- الأمثال بالأشياء الحقيرة، كالبعوضة. وواقع الأمر، أنّ البعوضة، على الرغم من صغرها وضعفها، فيها من دقّة الصنع وعجيب الخلق، ما يجعلها مثالاً وشاهداً ودليلاً.

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص34؛ البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص156-157.

(2) سورة النساء، الآيات 57، 122، 169؛ سورة المائدة، الآية 119؛ سورة التوبة، الآيتان 22، 100؛ سورة الأحزاب، الآية 65؛ سورة التغابن، الآية 9؛ سورة الطلاق، الآية 11؛ سورة الجنّ، الآية 23؛ سورة البيّنة، الآية 8.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾:

لأنّهم آمنوا به وبرسالاته، وصدّقوا أنبياءه، واهتدوا إلى سبيله؛ فعرفوا الحقّ، وأذعنوا للحقيقة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾:

قيل: معناها أنّ الله لا يستحيي من الحقّ أن يذكر فيه شيئاً ما قلّ أو كثر، فإنّ الله -تعالى- حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت، قال أهل الضلالة: ماذا أراد الله من ذكر هذا؟[1]، فالله -تعالى- يضرب الأمثال للناس في الحقّ؛ في حقير الأشياء وكبيرها، فهي عنده بمنزلة واحدة، وعلى المؤمن التسليم لأمر الله وعدم الاعتراض عليه.

ثمّ أخبرت الآية بأنّ الله -تعالى-: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. والفسق هو الخروج عن حِجر الشرع وعن طاعة المولى؛ أي الإخلال بما ألزم به؛ ولذا فُسّر الفاسقون في الآية التي تليها بأنّهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾.

والذي يظهر من الآية، أنّ الانحراف العمليّ يؤدّي إلى الانحراف النظريّ أيضاً، فالخروج عن دائرة الطاعة هو مخالفة لمقتضيات الشريعة، وما أمرت به الآيات الشريفة، وهذا يقوده إلى قطع العلاقة بالقرآن، والشعور بالنفور من آياته التي تأمره بما ترك، وتنهاه عمّا يفعل، وهذا النوع من الشعور يقود إلى الضلال والكفر.

(1) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، لا.م، 1409هـ، ط1، ج1، ص111.

الآية (27)

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

نقض العهد قبيح، ونقض عهد الله أقبح. وقد أمر القرآن الكريم بالوفاء بالعهد: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[1]، ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[3]، ووصف المؤمنين بأنّهم أهل الوفاء بالعهد: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[4]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[5].

وقد ذمّ القرآن الكريم الذين نقضوا العهد في هذه الآية، وفي آيات أخر: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[6]، ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾[7]. وفي آية التوبة دلالة على أنّ نقض العهد مع الله يؤدّي إلى النفاق: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[8].

---

(1) سورة النحل، الآية 91.
(2) سورة الأنعام، الآية 152.
(3) سورة الإسراء، الآية 34.
(4) سورة البقرة، الآية 177.
(5) سورة المؤمنون، الآية 8؛ سورة المعارج، الآية 32.
(6) سورة التوبة، الآيتان 75-76.
(7) سورة البقرة، الآية 100.
(8) سورة التوبة، الآية 77.

والعهد لفظ شامل يتضمّن كافّة العقود التي يجريها الإنسان مع أفراد جنسه، والمواثيق والصفقات، ويشمل الأيمان والنذور أيضاً. ولا شكّ في أنّ الإسلام، بما له من اهتمام بالبناء الاجتماعيّ، يؤكّد على أهمّيّة العقود والمواثيق والأيمان، ويأمر بالوفاء بالعهد؛ لأنّ الإخلال بها هو إخلال بأهمّ المواثيق التي يقوم عليها بناء العلاقات الاجتماعيّة والروابط بين البشر، ودونها ينهار هذا البنيان. وأمّا عهد الناس مع الله، فهو يشمل الآتي:

1. ميثاق الفطرة الذي أخذه الله عليهم.
2. مواثيق الأنبياء عليهم السلام الذين أرسلهم وبعثهم إلى البشر.

ولا يشترط في عهود الأنبياء عليهم السلام ومواثيقهم أن تكون من طرفين، بل يكفي فيها أن يبلّغوا عن الله -تعالى-؛ لأنّ العبد مملوك، وعلى المملوك طاعة المولى -عزّ وجلّ-، فإذا عهد إليه المولى بشيء، لزمه العمل به، وإلّا كان متمرّداً على عهد مولاه. نعم، فيما يرتبط بالبشر الذين لا حقّ لبعضهم على بعض، فإنّ العهد يحتاج إلى طرفين.

ويمكن القول: إنّ اقتضاء الخِلْقة والقبول التكوينيّ عند الإنسان يمثّلان طرفاً للعهد.

الآية (28)

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

في الآية استنكار لإقدامهم على الكفر -واستعمال وسائل

الاستفهام في الإنكار كثير-، وإلفات لأنظار المخاطبين إلى أنّ الذي تكفرون به هو صاحب النعم الكبرى عليكم، وصاحب العظمة التي تظهر من خلال الخلق، ما يستوجب النكير عليهم، إذ إنّ الإنعام ينبغي أن يقابَل بالشكر، والقدرة ينبغي أن تقابل بالاعتراف والخضوع!

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾:

الموت هنا هو انعدام الحياة السابقة على الإحياء في عالم الدنيا، فالإنسان في مراحل تحوّله بدأ من حالة الموت الأولى، ثمّ أفاض الله -تعالى- عليه الحياة، ثمّ يميته، ثمّ يبعثه حيّاً، ثمّ إليه المصير.

وبين الموت وبين الحياة تَقابُل «الملكة وعدمها». ويبدو أنّ الحالة السابقة على الإحياء الأوّل، والتي يصحّ فيها وصف الحال بالموت، هي حالة الطين قبل نفخ الروح فيه، وليس حالة العدم المطلق قبل الإيجاد، والله أعلم.

قال -تعالى-: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[1].

وأمّا حالة العدم قبل الموت، فلا أظنّ أنّها هي المقصودة بالآية؛ لعدم إطلاق الموت عليها. وفي القرآن -أيضاً- ذِكْر لها: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2].

(1) سورة السجدة، الآيات 7-9.
(2) سورة مريم، الآية 9.

ولا شكّ في أنّ نعمة الحياة هي أفضل النعم عند الإنسان؛ لذا نجده يحرص عليها، ويفديها بكلّ نعمة أخرى، فيذكّره -تعالى- بأنّه هو الذي أنعم عليه بالحياة بعد أنْ كان في عداد الأموات؛ ما يفرض عليه أن يعترف بالنعمة أوّلاً، وأن يشكرها ثانياً، وأن لا يتعلّق بغيره -تعالى- ثالثاً؛ لأنّه ليس من العقل التعلّق بالوهم والسراب، فإنّ كلّ ما سوى الله -تعالى- وهمٌ وسراب، وليس عند غيره -تعالى- قدرة على إفاضة الحياة والإمساك بزمامها وزمام الكائنات: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1]. هذا كلّه يفسّر معنى الإنكار السابق: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾:

إذا كان الإحياء نعمةً ودليلاً على العظمة، فكيف أدرج -تعالى- الإماتةَ في سياق الامتنان على الإنسان؟! ويكمن الجواب في أنّ الإماتة -هنا- تُتَناول من جهتين:

الأولى: تذكير للإنسان بأنّه بعد أنْ وَجد نفسه حيّاً في دار الدنيا، لا يمكنه الفرار من خالقه، ولا التمرّد عليه؛ لأنّه -تعالى- بيده الموت والحياة، وبالتالي هو يقطع حياته ويميته في أيّ لحظة يشاء، ونحن نرى في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة، كيف أنّ بني الإنسان يموتون بشكل تدريجيّ؛ ما يقتضي الاعتبار وعدم الركون إلى طول الأمل.

الثانية: الإماتة التي تتحدّث عنها الآية هي نعمة؛ لأنّها مرحلة من مراحل تطوّر الحياة، وإنْ نظر إليها الإنسان على أنّها بلاء ومصيبة.

(1) سورة يس، الآية 83.

فنحن عندما نقصر النظر إلى الجانب المادّيّ المحسوس في الحياة وفي الإنسان الحيّ، فسوف نرى أنّ الموت هو فقدان للحياة، وأنّه نقص يطرأ على الإنسان، بحيث يتسجّى دون حراك بعد أن كان يتحرّك، ودون إحساس بعد أن كان يحسّ ويتكلّم ويتواصل مع بني البشر، وما إلى ذلك.

لكنّ النظرة الواقعيّة إلى الموت تجعله في سياق النعم -أيضاً- كالحياة؛ لأنّه مرحلة من مراحل التطوّر، فالموت جسر يعبره الإنسان إلى عالم آخر وحياة أخرى، والحياة الأخرى أكمل من هذه الحياة.

كما أنّ الموت هو نعمة نسبيّة، فإنّ موت بعضٍ نعمةٌ لبعض، وإنْ كرهوا ذلك أحياناً.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ قوماً أتَوا نبيّاً لهم، فقالوا: ادعُ ربّك يرفع عنّا الموت، فدعا لهم فرفع الله -تعالى- عنهم الموت، وكثروا حتّى ضاقت بهم المنازل، وكثر النسل، وكان الرجل يصبح فيحتاج أن يطعم أباه وأمّه وجدّه وجدّ جدّه، ويرضيهم ويتعاهدهم، فشغلوا عن طلب المعاش، فأتوه فقالوا: سل ربّك أن يردّنا إلى آجالنا التي كنّا عليها، فسأل ربّه -عزّوجلّ-، فردّهم إلى آجالهم**»[1].

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص600-601.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

الرجع غير البعث، ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[1]. فالرجوع هنا بعد أن يُبعث الناس يوم القيامة، وهو للقاء المصير، فمن فاز بالجنّة يرجع إلى نعم الله التي لا تعدّ ولا تفنى.

الآية (29)

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

في هذه الآية وفي آيات أخرى في كتاب الله، امتنانٌ، من الله -تعالى- على الإنسان بما أنعم عليه من خلق الموجودات وتسخيرها له: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾[3]. وهذا كلّه يقع في سياق استخلاف الإنسان في الأرض، الذي سيأتي الحديث عنه، إنْ شاء الله.

الآية (30)

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

(1) سورة الأنعام، الآية 36.
(2) سورة الجاثية، الآية 13.
(3) سورة إبراهيم، الآيتان 32-33.

الملائكة مخلوقات مجرّدة لا تُرى بالرؤية المادّيّة، إلّا إذا تمثّلت للإنسان بصورة مادّيّة، وهم قادرون على ذلك، كما حصل في قصّة تمثّل الملك لمريم عليها السلام، وفي دخول الملائكة على النبيّ إبراهيم عليه السلام، والنبيّ على لوط عليه السلام، وكما كان يحصل في بعض الحالات عندما ينزل جبرئيل عليه السلام على النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بصورة شابّ وسيم. وهم أكثر عدداً من عدد التراب في الأرض.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما خلق الله خلقاً أكثر من الملائكة**»[1]، وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**والذي نفسي بيده، لملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلّا وفيها ملك يسبّحه ويقدّسه، ولا في الأرض شجر ولا مدر إلّا فيها ملك موكّل بها**»[2].

وورد في صفة الملائكة أنّه -تعالى- خلقهم من نور، وإنّ الأبصار لا تشاهدهم؛ لأنّهم مخلوقون كالهواء، وأنّهم يتفاوتون في قدراتهم ووظائفهم[3]، وأنّهم لا يعصون الله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[4]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[5].

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾:

إخبار من الله -تعالى- لملائكته عن عزمه على جعل مخلوق في

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، ثواب الأعمال، تقديم: محمّد مهديّ السيّد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضيّ، مطبعة أمير، قم المقدّسة، 1368هـ.ش، ط2، ص96.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص255.
(3) انظر: الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج1، الخطبة1، ص19-20.
(4) سورة الأنبياء، الآية 27.
(5) سورة النحل، الآية 50.

الأرض يستخلفه فيها، فيسخّرها له. وقد تقدّم في الآيات السابقة ذِكْرٌ لغاية خلق الأرض وما فيها.

ومقتضى الاستخلاف أن تترتّب مجموعة لوازم:

1. تسليط المستخلَف على ما استُخلِف فيه؛ ليتصرّف فيه.
2. رعاية المستخلَف لأصول التصرّف الذي يرضى به المستخلِف.
3. عدم الاستئثار والاستقلال بشيء من الإرادة والسلطة، خاصّة عندما يُطلب منه الخروج ممّا استُخلِف فيه.

وكلّ لازمٍ من هذه اللوازم الثلاثة يشكّل بحثاً يمكن الحديث عنه مفصّلاً.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾:

كيف علم الملائكة أنّ هذا المخلوق يفعل ذلك؟

قيل: ربّما علموا ذلك من جهة أنّ الموجود الأرضيّ، بما هو مادّي مركّب من قوى تدفع إلى وقوع الفساد، وبما أنّ هذا الأمر لا يليق بمقتضى الاستخلاف، فإنّ الإنسان، بما له من وصف، لا يصلح لخلافة الوجود الإلهيّ.

وقيل: إنّ الخلافة لها معنى آخر، وهو خلافة الإنسان لموجودات أرضيّة أخرى كانت قد انقرضت، وجاء عِلْم الملائكة من جهة قياس الخليفة الجديد على المخلوقين السابقين، ولكنّ هذا القول لا يناسب تعليم آدم الأسماء، وطريقة إجابة المولى عن سؤالهم.

وقيل: إنّه -تعالى- أخبرهم بذلك.

والفساد في الأرض عنوان عامّ ينضوي تحته كلّ فعل أو تصرّف يؤدّي بالموجودات الأرضيّة إلى خلاف الغاية التي أُوجدت من أجلها.

وعليه، فإنّ التخريب والتبذير، وإتلاف المال والثمرات والأنفس، كلّها من الإفساد، وإنّ التصرّفَ بما في الأرض في صورة مخالفة الإذن الإلهيّ إفساد في الأرض.

وهذا باب واسع يمكن جعله مدخلاً لثقافة اجتماعيّة تحدّد آلية التعامل مع الشجر والحجر والماء والخيرات.

﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾:

وجهٌ آخر من وجوه الإفساد، بل من أهمّ وجوهها؛ وذلك بالتسبّب في الحروب، وارتكاب القتل؛ وهو مستنكر.

وهذا لا يشمل ما شُرِّع في القتل؛ لأنّ فيه ردعاً للفساد في الأرض، ومنعاً لسفك الدماء.

والملاحَظ أنّه -تعالى- لم ينفِ عن الإنسان وقوع الفساد والسفك الذي احتجّت به الملائكة، ولم يخطّئهم في هذا الأمر، ولا كذّبهم في دعواهم التسبيح والتمجيد والتقديس، وإنّما بيّن لهم أنّ ثمّة من الحكمة ما جهلوه، فعبّر عنه فيما بعد بإظهار قدرة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على تحمّل ما لم تتحمّله الملائكة.

والتسبيح: هو التنزيه، مأخوذ من قول: «سبحان الله»، وهو مصدر في الأصل، مثل: غفران.

والتقديس: التطهير، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾؛ أي نطهّر أنفسنا من

الشرك بك، فكأنّها تصبح خالصة لك، ونقرّ بذلك لك، أو نقدّسك بالقدس والتقديس[1].

الآية (31)

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

التعريف في قوله -تعالى-: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ يصلح أن يكون للعموم، ويدعمه قوله (كلّها)، ويصلح ضعيفاً أن يكون للعهد؛ أي الأسماء المعهودة، لكنّ عدم تقدّم ذِكْرها قد يجعل من العهد أمراً فيه نحو من التكلّف.

والأسماء -هنا- ليست من قبيل الأسماء التي نعلمها، كأسماء الأشخاص والأشياء، وإلّا لكانت الملائكة قادرة على تعلّمها، ولما كانت ميزة للنبيّ آدم؛ لأنّهم يفترض أنّهم صاروا عالمين بها بعد أن أنبأهم آدم بها، وصاروا مثل آدم مساوين له، فأيّ فضل له، وأيّ كرامة عندها، خاصّة إذا كان قد علّمه الله -تعالى- ولم يعلّمهم، وعندئذٍ يمكن أن يقولوا لو علّمتنا لعلمنا، ولكنّا مثله أو أشرف منه، وأيّ حجّة في أنّ الله -تعالى- علّم رجلاً علم اللغة -مثلاً- ثمّ يباهي به!

وقد استحقّ آدم عليه السلام -على الظاهر- الخلافة بالعلم بالأسماء، دون إنبائها.

واحتمل بعض المفسّرين أن تكون المسمَّيات موجودات عالية

(1) راجع: الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص134.

محفوظة عنده -تعالى- محجوبة بحجب الغيب، والعلم بالأسماء هو علم بها[1].

الآية (32)

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2].

الآية (33)

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾:

وقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، ما كتموه ربّما يُستظهر من استكبار إبليس وعصيانه فيما بعد.

الآية (34)

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

بالتأمّل في هذه الآية، يمكن الإشارة إلى مطالب عدّة، هي:

1. السجود: هو الخضوع والتذلّل. والصورة المعروفة هي تعبير عن ذلك وإظهار له؛ لأنّ وضع الرأس على التراب، وتمريغ الأنف هما غاية التذلّل والخضوع. والسجود غير مختصّ بالبشر ولا بالمخلوقات العاقلة، بل يسجد لله كلّ ما في الكون، قال -تعالى-:

(1) انظر: العلامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص116-117.
(2) لم يفسّر سماحته هذه الآية.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2]، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[3]، ولكنّ سجود المخلوقات غير العاقلة هو بالخضوع التكوينيّ والانقياد التامّ لإرادته -تعالى-، كما هو تسبيحها، فهي مذعنة لأمره وإرادته، حاكية عن عظمته وكماله.

ولذا قسّموا السجود إلى قسمين، أو ضربين: سجود اختياريّ، وسجود تسخير. الأوّل خاصّ بالعقلاء المريدين، كالإنسان، والثاني عامّ يشمل كلّ شيء.

2. السجود لله -تعالى-، وهو الأصل، ولكنّ السجود لغير الله لا ينافي هذا الأصل إذا كان استجابةً لأمر الله، وخضوعاً لإرادته، وتعظيماً له.

ولذا أمر الله -تعالى- الملائكة بالسجود للنبيّ آدم، وحكى عن نبيّه يعقوب عليه السلام وأبنائه سجودهم للنبيّ يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾[4].

وأمّا معنى السجود للنبيّ آدم، أو سجود النبيّ يعقوب عليه السلام وأهل بيته للنبيّ يوسف عليه السلام، فقد قيل: إنّه على نحو التحيّة، وقيل: على نحو التكريم وإظهار الفضل والمنزلة.

عن الإمام عليّ عليه السلام: « **فإنّ سجودهم له لم يكن سجود طاعة، وإنّهم عبدوا آدم من دون الله -عز وجل-، ولكن اعترافاً**

(1) سورة النحل، الآية 49.
(2) سورة الرعد، الآية 15.
(3) سورة الرحمن، الآية 6.
(4) سورة يوسف، الآية 100.

بالفضيلة، ورحمة من الله له»[1].

وعن الإمام الهاديّ عليه السلام: «**أنّ السجود من الملائكة للنبيّ آدم إنّما كان ذلك طاعة لله، ومحبّة منهم للنبيّ آدم**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه: «**تكرمة من الله -تعالى-**»[3].

3. إبليس -عليه اللعنة- لم يكن من الملائكة، حيث يقول -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[4]. لكن ما هو وجه استثناء مَنْ كان من الجنّ من بين جماعة الملائكة؟ وكيف شمله الأمر الإلهيّ وهو ليس منهم؟!

وللعلماء في هذه المسألة أبحاث طويلة، وخلاصة الكلام: إنّ إبليس، وإنْ كان من الجنّ، ولكنّه كان مع الملائكة، فالأمر الإلهيّ كان قد توجّه إليه -أيضاً- بقرينة قوله -تعالى-: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ﴾[5].

وقد كان له منزلة أوصلته إلى المقام الذي جمعه مع الملائكة، ولكنّه تكبّر، فأُهبِط منها؛ لأنّ الملائكة: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا

(1) الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق - النجف الأشرف، 1386هـ - 1966م، لا.ط، ج1، ص314.

(2) ابن شعبة الحرّانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، 1404هـ.ق/1363هـ.ش، ط2، ص478.

(3) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج11، ص139.

(4) سورة الكهف، الآية 50.

(5) سورة الأعراف، الآية 12.

يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1]، بينما عصى إبليس ربّه، وتمرّد على أمره واستكبر.

4. لماذ امتنع إبليس من السجود للنبيّ آدم وهو يعلم أنّ ذلك سيؤدّي به إلى النزول من ذلك المقام الذي بلغه بطول عبادته له -تعالى-؟

والجواب: إنّ إبليس -عليه اللعنة- كان في نفسه لوثة العجب والشعور بالكبر، وقد ابتلاه الله -تعالى- بالسجود للنبيّ آدم؛ ليظهر ذلك منه، ولم يمنعه من الاستجابة لأمر ربّه إلّا هذه اللوثة، التي عبّر عنها بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾[2]، فنظر إلى الجانب المادّيّ، وأغضى عن الجانب الروحيّ الذي هو سبب تعظيم آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

فجاء الردّ الإلهيّ: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[4]. والصَّغار هو عكس الغرض الذي يريد المتكبّر تحقيقه، فعلى الرغم من أنّ المتكبّر هو الذي يدّعي لنفسه مكانة ومقاماً ومنزلة ليست له، فهو يدّعي الكبر وهو صغير، والمتكبّر، وإنْ توهّم أنّه يرتفع بذلك، ولكنّه يزداد صغاراً، ففي الحديث: «**ما تكبّر إلّا وضيع**»[5].

(1) سورة الأنبياء، الآية 27.
(2) سورة ص، الآية 76.
(3) السورة نفسها، الآية 72.
(4) سورة الأعراف، الآية 13.
(5) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص475.

ولذا، ورد الحثّ في الشريعة على التواضع، ففي الحديث: «**ومن تواضع عظّمه الله ورفعه**»[1]، «**التواضع يرفع، والتكبّر يضع**»[2].

والأقبح أن يكون التكبّر على الله -تعالى-، والامتناع من الاستجابة للأمر الإلهيّ، كما هو حال إبليس اللعين.

عن هشام بن سالم ، عن الصادق عليه السلام قال: «**أُمر إبليس بالسجود لآدم، فقال: يا رب، وعزّتك إنْ أعفيتني من السجود لآدم عليه السلام ؛ لأعبدك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها، قال الله - جلّ جلاله-: إنّي أحبّ أن أُطاع من حيث أريد**»[3].

5. كانت نتيجة إباء إبليس هي اللعين، ونتيجة استكباره هي الكفر: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]. وكفره هذا هو كفر جحود وعصيان، وإنْ كان من الممكن أن يُقال إنّ العصيان يؤدّي إلى عمى البصيرة، وعمى البصيرة يُوصل الإنسان إلى الكفر بالإيمان، والله أعلم.

الآية (35)

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بعد التعرّض لقصة السجود للنبيّ آدم، ذكر الباري -عزّ وجلّ- قصّة إسكان آدم وحوّاء الجنّة، وما جرى لهما مع إبليس، وهبوطهما إلى الأرض. وقد وردت هذه القصّة في ثلاثة مواضع من القرآن: في

(1) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص449.
(2) المصدر نفسه، ص36.
(3) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، قصص الأنبياء، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، مؤسّسة الهادي، إيران - قم، 1418 - 1376 ش، ط1، ص46.
(4) سورة البقرة، الآية 34.

هذه السورة، وفي سورة الأعراف، وفي سورة طه.

والسكن: من السكون، وهو خلاف الحركة. ويسمّى الاستيطان في المكان الذي يستقرّ فيه الإنسان، ويعود إليه بعد الحركة، محلّ السكن، وهو المسكن.

والخطاب في الآية للنبيّ آدم ولزوجه، وهي حواء. والزوج اسم يطلق على المؤنّث والمذكّر، والزوجة في التأنيث لغة رديئة، وهي لم ترد في القرآن. والزوج أحد الزوجين المتلازمين؛ أي الاثنين المقترنين؛ كالخفّين، والنعلين، وكلّ أنثى وذكر من المخلوقات.

والجنّة -هنا- ليست جنّة الخلد، فتلك لا يخرج منها مَن يدخلها؛ بقرينة قوله -تعالى- حكاية عن إبليس: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[1]؛ الذي يقتضي أنّ آدم كان يعتقد أنّها ليست جنّة الخلد، وإلّا لما صحّت دلالته على ما يحقّقه.

وثمّة روايات عدّة في كون الجنّة من جنان الدنيا، كما في تفسير القمّيّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كانت من جنان الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً**»[2].

وفي روايات أخرى، أنّ الجنّة كانت في السماء، وأنّ آدم وحواء نزلا من السماء، ويمكن القول: إنّها لم تكن على الأرض، ولكنّها ليست جنّة الخلد على كلّ حال.

(1) سورة طه، الآية 120.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص43.

﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾:

أباح الله -تعالى- لهما الأكل من كلّ ثمار الجنّة دون عناء، هنيئاً مريئاً في سَعة من العيش، مع ترك الخيار بالانتقاء ممّا تتعلّق به مشيئتهما.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

لم يرد في القرآن الكريم تحديد اسم الشجرة أو نوعها التي نُهي عنها آدم وزوجه، وإنّما حُدّدت بالإشارة المعلِّمة له خاصّة. وقد ذكر المفسّرون فيها أقوالاً لم تعتمد على شيء وثيق، لكنّ الواضح والمؤكّد أنّها شجرة لثمارها مدخليّةٌ في ظهور بعض خواصّ الجسد، بقرينة قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾[1].

والنهي عن أكل الشجرة هو نهي إرشاديّ، وليس مولويّاً تحريميّاً؛ وذلك لأسباب عدّة، منها:

1. إنّ النهي التحريميّ يجعل من مخالفته معصية، والمعصية غير جائزة للأنبياء عليهم السلام.
2. إنّ النهي عُلّل تارة بأنّه: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وأخرى: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾[3]، فيكون النهي عنها؛ لأنّها موجبة للخروج من الجنّة، وظهور السوءة، والتعرّض للشقاء في الحياة الدنيا.

(1) سورة الأعراف، الآية 22.
(2) سورة البقرة، الآية 35.
(3) سورة طه، الآيات 117-119.

ومن الواضح، أنّ إقدام آدم على الأكل من الشجرة كان سبباً للخروج من الجنّة إلى مرحلة الابتلاء، والهبوط إلى ساحة التكليف والامتحان والتوالد والموت والبعث والحساب والجزاء.

لكنّ الباري -عزّ وجلّ- أراد للإنسان أن يدخل إلى هذا العالم بإرادته واختياره، فأخضعه للامتحان. ويصحّ أن يعبّر عن هذا الاختيار بأنّه ظلم للنفس؛ لأنّه تعريض لها للامتحان الذي لا يُؤمَن فيه الفوز والنجاح.

وهذه المرحلة؛ أي دار الدنيا، مرحلةٌ ضروريّة، ولا بدّ منها لبلوغ الكمال، من خلال العمل والتمحيص والامتحان. وفي كلام الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ إشارة إلى واقع حال الدنيا، وإنّما كان ذلك قبل قصّة الشجرة والسجود. ما يدلّ على أنّ آدم خُلِقَ للاستخلاف في الأرض، وإنْ كان ذلك طريقاً إلى الآخرة.

وفي التوراة المحرَّفة المتداوَلة ذِكْرٌ لهذه القصة بشكل مشوَّه، فيه نسبة الكذب والجهل إلى الله -تعالى عن ذلك-، وفيها أنّ سبب الإخراج من الجنّة هو أنْ لا يستدلّ آدم على شجرة الخلد، فيصير كالملائكة. وهي -كما في قصص الأنبياء عليهم السلام كلّها- تظهر مستوى التلاعب بالتوراة من قبل أصحاب النفوس المريضة.

الآية (36)

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

وذلك بالوسوسة المعروفة التي حدّثنا القرآن الكريم عن

تفاصيلها في مورد آخر، حيث قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾[1].

لكن كيف خُدع آدم بكلام الشيطان على الرغم من أنّه -تعالى- كان قد حذّره منه، وأخبره عن عداوته له ولزوجه؟!

والجواب: يمكن أن يكون آدم قد انخدع بتصديق الشيطان، بأنّه لم يقع النهي نتيجة كراهية الأكل منها، أو أنّه انخدع بالقَسَم ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، ولم يتصوّر إقدام الشيطان الرجيم على القَسَم كذباً وغروراً، والله أعلم.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾:

تسبّب إبليس اللعين في إخراجهما نتيجة التغرير بهما، ودعوتهما إلى الأكل من الشجرة.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

الجمع في ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ ربّما كان خطاباً للنبيّ آدم وحواء وإبليس. والعداوة -إذاً- هي عداوة الشيطان للإنسان. وربّما كان الخطاب

(1) سورة الأعراف، الآيات 20-22.

للنبيّ آدم وذرّيّته، وفي ذلك تحقّق لما كان يخشاه الملائكة من سفك الدماء والفساد في الأرض، وهو ما لم ينفِه المولى -عزّ وجلّ-.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

المستقرّ: هو المكان الذي يُستوطن فيه؛ لأنّه يقال: قرّ في مكان؛ أي ثبت وجمد، ومنه قوله -تعالى-: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[1]، ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾[2]؛ أي النار.

لكن، لكي لا يُتوهّم أنّ المستقرّ دائم وأبديّ، عطف عليه بقوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، انتفاع مؤقّت إلى مدّة معلومة: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾[4]، ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾[5].

الآية (37)

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

هل كان التلقّي بعد الهبوط أم قبله؟

المسألة غير واضحة؛ لأنّ ما بعد هذه الآية تَكرار للأمر بالهبوط؛ وهو، وإنْ كان تأكيداً للأوّل، ولكنّه جاء بعد التوبة؛ ما يقتضي أن يكون التلقّي بعد الندم وقبل الهبوط. والله أعلم.

(1) سورة غافر، الآية 64.
(2) سورة الفرقان، الآية 66.
(3) سورة يونس، الآية 98.
(4) سورة لقمان، الآية 24.
(5) سورة البقرة، الآية 126.

وقد حكى الله -تعالى- عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾:

أي تعلّمها واستوعبها.

فما هي هذه الكلمات؟

قيل: هي عبارات الدعاء، كما ورد عن أحدهما عليهما السلام (الباقر عليه السلام أو الصادق عليه السلام): «**لا إله إلّا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي، وأنت خير الغافرين. لا إله إلّا أنت، سبحانك اللّهمّ وبحمدك، عملتُ سوءاً، وظلمت نفسي، فتب عليّ، إنك أنت التوّاب الرحيم**»[2]. وفي رواية أخرى: «**اللّهمّ إنّي أسالك بحقّ محمّد وآل محمّد لمّا غفرت لي**»[3].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾:

يبدو أنّ ثمّة مرحلة مطويّة في القصّة، فبعد أنْ تلقّى آدمُ الكلمات، دعا بها ربّه، وتاب إليه، فتاب الله عليه. فالتوبة توبتان: توبة من العبد تتعدّى بـ (إلى)، وتوبة من الله تتعدّى بـ (على)، والأولى إنابة ورجوع من العبد إلى مولاه بالاستغفار والإقلاع عن المعصية، فكأنّ المذنب قد ابتعد عن مولاه، وهرب منه، وتجرّأ على مخالفته،

(1) سورة الأعراف، الآية 23.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص304-305.
(3) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص287.

غافلاً عن كونه في قبضته وفي مملكته، متوهّماً أنّه متجرّد من سلطانه، فإذا رجع إلى رشده وتذكّر سطوة مولاه، عاد إلى بيت الطاعة، وأناب إليه؛ وهذه هي توبة العبد. والثانية: قبول المولى لعبده، وإدخاله ثانية إلى ساحة رحمته، وشموله بمغفرته وعفوه؛ وهي توبة المولى -عزّ وجلّ- على عبده. وهذه التوبة من الله -تعالى- ربّما كانت قبل توبة العبد وبعدها، فإنّ فتح باب التوبة والتوفيق إليها نوع من اللطف، وهو داخل في توبة المولى، قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقد فتح الله -تعالى- باب التوبة والإنابة لعبيده، لكي لا يقعوا فريسة اليأس والقنوط، ووعد التائبين بالعفو والمغفرة، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]، وأخبر أنّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[5].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس شيء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة**»[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية 118.
(2) سورة المائدة، الآية 39.
(3) سورة الزمر، الآية 53.
(4) سورة الأنعام، الآية 54.
(5) سورة البقرة، الآية 222.
(6) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1404هـ.ق/1984م، ط1، ج2، ص33.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**أنّ الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها**»[1].

الآية (38)

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

تَكرار للأمر بالهبوط من الجنّة، وتأكيد على شموله للجميع. ذُكِرَ في نكتة هذا التكرار احتمالان، هما:

1. أن يكون تأكيداً للأمر الأوّل، فجيء به للتمهيد لأمر الهداية التي بها عودة الرجاء.
2. أنّ الأمر الثاني هو حكم جديد وقضاء آخر، فالسابق وقع قبل التوبة، وترتّب على الأكل من الشجرة، والثاني ترتّب على التوبة، وتضمَّن شمول الإنسان بالرحمة والعناية الإلهيّة التي تجلّت بفتح باب الهداية أمامه لحركة صعوديّة إليه -تعالى-، وذلك بعد تلك الحركة النزوليّة التي ترتَّبت على الأكل من الشجرة[2].

والمقصود من الجميع في الآية يرجع إلى ما تقدّم من أنّ الخطاب ربّما كان للنبيّ آدم وزوجه وإبليس، وربّما كان للنبيّ آدم وزوجه، ولذرّيتهما، تبعاً لهما، الذين، وإن لم يكونوا موجودين حينه، ولكنّهم سيولدون، فيكونون مشمولين بالهبوط؛ لشمولهم بالمترتّبات، ومنها فتح باب الهداية. والله أعلم.

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص435.
(2) انظر: العلاّمة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص134-135.

ولم تنتج التوبة التي تقدّمت من آدم، وقبولُها من المولى -عزّ وجلّ-، رجوعاً له ولزوجه إلى الجنّة، وإنّما عناية إلهيّة بهداية الإنسان، وهذا يدلّ على أنّ النهي عن أكل الشجرة لم يكن نهياً تعبّدياً محضاً، وإلّا لكان قَبول التوبة موجباً لمحو آثار الفعل السابق كلّها بها، وهذا -أيضاً- يدلّ على أنّ الفعل -أيّ فعل- ربّما كان له أكثر من أثر، وأنّ التوبة والاستغفار يؤثّران في إزالة التبعات التي لها علاقة بالمخالفة والخروج عن مقتضى العبوديّة وما يترتّب عليهما من عقوبة، دون الأثر التكوينيّ الذي لا يزول بالتوبة، وإنّما يفتح للتائب باب إزالته بالعمل والتغيير، وهو ما حصل مع آدم عليه السلام.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾:

كلمة جامعة للرسالات والكتب والتشريعات كلّها، فهي تفاصيل الهدى الآتي من الله -تعالى- عن طريق رسله وأنبيائه عليهم السلام.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

النتيجة المتوقّعة بعد إتيان الهدى هي الاتّباع والاقتداء والأخذ به. وهذا الاتّباع ينجي من الهلكة ومن العاقبة السيّئة، فلا خوف على المتّبعين من العذاب، وممّا أعدّه الله -تعالى- للعاصين من العقاب، ولا هم يحزنون لهَول الموقف وسوء المصير وفوات الفرصة؛ فمن يتّبع هدى الله يصل إلى الأمن، ويضمن سلامة العاقبة، وحسن المصير، ويعود إلى الجنّة.

الآية (39)

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، وخلاصتها الآتي:

1. الجحود بالربوبيّة؛ أي إنكار الربّ، والشرك به.
2. الجحود مع المعرفة: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[1].
3. كفر النعم: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[2]، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾[3].
4. ترك ما أمر الله به: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾[4].
5. كفر البراءة: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[5].

وأصل الكفر مأخوذ من الستر؛ ولذلك وصف الليل بالكافر، وكذلك المزارع؛ لأنّه يستر البذر في الأرض؛ وعليه، فالكفر هو طمس الحقيقة، وكُفْرُ النعمةِ إنكارُها وطمسُها بدلاً من شكرها. وأكثر استعمال هذا الجذر في الكفر بالدين، وأمّا بالنعمة فكفران.

(1) سورة النمل، الآية 14.
(2) السورة نفسها، الآية 40.
(3) سورة إبراهيم، الآية 7.
(4) سورة البقرة، الآية 85.
(5) سورة الممتحنة، الآية 4.

والتكذيب بالآيات هو أحد أوجه الكفر بها؛ لأنّها دلالات واضحات وبيّنات؛ لذا عُدّ التكذيب بها وإنكارها قبيحاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

أشار إليهم باسم الإشارة المخصَّص للبعيد؛ لبعدهم عن رحمة الله، وكونهم ملعونين، وأخبر عنهم بأنّهم أصحاب النار الذين يقيمون فيها، وهم حصّتها، وحصّبها، ويكتوون بعذابها، خالدون فيها، مقيمون دائمون.

الآية (40)

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾:

شرعت هذه الآية والآيات اللاحقة لها، كما آيات أخرى ناهزت مئة آية، في ذكر بني إسرائيل، ومعاتبتهم، وتعداد نعم الله عليهم، وما قابلوها من الكفر والعصيان.

من هم بنو إسرائيل؟

بنو إسرائيل هم ذرّيّة إسرائيل، وهو نبيّ الله يعقوب عليه السلام، ومعناه عبد الله، أو صفوة الله بلسان بني إسرائيل العبرانيّ أو السريانيّ.

وأُطلق لقب بني إسرائيل على ذرية يعقوب عليه السلام من أبنائه الاثني عشر؛ وهم اثنا عشر سبطاً أو قبيلة، وكانوا قد نزلوا مصر عندما جاء بهم يوسف عليه السلام.

وأوّل أنبياء بني إسرائيل هو موسى عليه السلام، وآخرهم عيسى عليه السلام.

وقد ذُكِرَ بنو إسرائيل في القرآن في كثير من مواضعه، كما أنّ موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء ذِكْراً في القرآن، فقد ذُكِر في 136 موضعاً، بينما إبراهيم عليه السلام ذُكِر في 69 موضعاً.

وقد ورد خطاب بني إسرائيل في السور المدنيّة؛ لأنّهم كانوا في المدينة وما جاورها من مدن وقرى زمن الهجرة المباركة. ويظهر عند استعراض الآيات الواردة فيهم أنّهم جمعوا صفات العناد والتمرّد ونقض المواثيق والجحود والكفر والإفساد كلّها؛ لذا صاروا مثلاً، وصارت قصصهم عبرة.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

النعمة هنا جنس ينطبق على النعم كلّها، قال -تعالى-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1]. وقد ذَكَر القرآن الكريم بعضاً من هذه النعم في آيات أخرى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

ونِعم الله -تعالى- على الإنسان لا تعدّ ولا تحصى. ونكتة التذكير بها في خطاب بني إسرائيل لمعاتبتهم على معاندتهم واستكبارهم وقلّة شكرهم. ومن جملة تلك النعم: نعمة إرسال النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى والدِّين، وإليه تشير الآيات القادمة. فعلى الإنسان أن يدرك

(1) سورة إبراهيم، الآية 34.
(2) سورة المائدة، الآية 20.

حقّ النعمة، فلا تجعله يبطر وينسى مصدرها، فيتخيّل أنّه هو الذي يأتي بها بعلمه وقدرته، كما حصل مع قارون الذي تحدّث عنه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَ لَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾[1].

فُعلى الإنسان أن يستعمل نعمة الله في طاعته -تعالى-، لا في معصيته، ويصيّرها وسيلة للآخرة، وليس للفساد والإفساد. وإذا ما أراد الإنسان أن يستمتع بالدنيا، فعليه أن يحفظ حدود الله، ولا يتعدّاها: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[2]. فالنعمة تبقى نعمة إذا شُكِرت، وإلّا صارت بلاء ونقمة. والعياذ بالله.

الحثّ على شكر النعم

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

1. «**شكر النعمة أمان من حلول النقمة**»[3].

(1) سورة القصص، الآيتان 76 - 78.
(2) السورة نفسها، الآية 77.
(3) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص291.

2. «اشتغل بشكر النعمة عن البطر بها»[1].
3. «كم من مغبوط بنعمته، وهو في الآخرة من الهالكين»[2].
4. «نعمة لا تُشكَر كسيّئة لا تُغفَر»[3].

أنواع النعم

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

1. «الصحّة أفضل النعم»[4].
2. «أفضل النعم العقل»[5].
3. «ألاَ وإنّ من النعم سَعة المال، وأفضل من سَعة المال صحّة البدن، وأفضل من صحّة البدن تقوى القلب»[6].

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾:

تتحدّث الآية عن عهد العبودية والطاعة له -تعالى-، وعدم الشرك به، الذي أخذه على البشر كلّهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[7]، ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾[8]، وهو العهد الذي أخذه

(1) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص83.
(2) المصدر نفسه، ص379.
(3) المصدر نفسه، ص497.
(4) المصدر نفسه، ص23.
(5) المصدر نفسه، ص111.
(6) المصدر نفسه، ص108.
(7) سورة الأعراف، الآية 172.
(8) سورة يس، الآية 60.

الله على الأنبياء كلّهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]، وهو عهد -أيضاً- يتفرّع ويترتّب على كلمة التوحيد وشهادتَي الإسلام. والعهد الثاني المُضاف إلى المخاطبين هو ما وعد الله -تعالى-. به المطيعين، من الثواب والمنازل، وإدخالهم الجنّة. وفي الرواية أنّه قال رجل للإمام أبي عبد الله عليه السلام: جُعلتُ فداك، إنّ الله يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنّا ندعو فلا يستجاب لنا! قال: «**لأنّكم لا تفون الله بعهده، وإنّ الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. والله، لو وفيتم لله لوفى الله لكم**»[2].

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾:

أمْرٌ من الله -تعالى- لبني إسرائيل، كما لبني آدم كلِّهم، بأنْ يستشعروا الرهبة من الله، والخوف من عذابه؛ لأنّ أخذه للعاصين بالعذاب أخْذُ عزيز مقتدِر.

وتقديم ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ يفيد الحصر والاختصاص الذي يستلزم النهي عن الخوف من غيره -تعالى-. ولا شكّ في أنّ الخوف يستلزم التحرّز، وهو إنّما يتمّ باجتناب موجبات الغضب الإلهيّ، والإتيان بموجبات الرضى والرحمة.

(1) سورة آل عمران، الآيتان 81-82.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص46.

الآية (41)

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾:

لعلّ الإيمان بما أنزله -تعالى- على نبيّ الإسلام ﷺ من مستلزمات الوفاء بالعهد مع الله -تعالى-، على ما تقدّم من الميثاق الذي أخذه الله -تعالى- على النبيّين، فيكون الوفاء بالعهد واجباً على أتباعهم من باب أَوْلى، بل هو من مقتضيات الاتّباع، وخاصّة أنّ كلّ واحد من أنبياء بني إسرائيل قد أخبر عن خاتم الأنبياء ﷺ، وحدّد لهم أوصافه، وزمان خروجه ومكانه، فكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ وما دفَع ذلك بقبائل كثيرة منهم للاستيطان في مواطن بعثته ومهجره، وإخبار المشركين بخبره، وتهديدهم ببعثته وظهوره: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[1]، ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾[2].

وفي خبر أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد القيس، أنّهما التقيا النبيّ ﷺ في مكّة، وكان فيما قاله أسعد له: «لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، ويبشّروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك. والله ما جئت إلّا لنطلب الحلف على قومنا، وقد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له»[3].

(1) سورة البقرة، الآية 146.
(2) سورة البقرة، الآية 89.
(3) الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1417هـ، ط1، ج1، ص138.

والقرآن الكريم هو المصدِّق لما جاء به الأنبياء السابقون عليهم السلام، وهو المقصود بقوله -تعالى-: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾. ولا يقتضي ذلك التوافق في تفاصيل الأحكام كلّها، بل يكفي أن يكون مُقِرّاً بنزول التوراة والإنجيل ورسالات الأنبياء السابقين عليهم السلام، وإنْ عمد إلى نسخ بعضها، وإمضاء بعضها؛ لأنّ أحكام التوراة والإنجيل قابلة للنسخ، بل هي مغيّاة بما يأتي به القرآن، حيث أخبرت بنبوّته، وبشّرت ببعثته، وطلبت الإيمان والتصديق به.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾:

الخطاب لأهل الكتاب، أو لبني إسرائيل بأن لا تسارعوا إلى الكفر، وأنتم أعرف الناس بأحقّيّة نبوّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وبصدقه. ولا يعني ذلك انحصار النهي بالسبق دون التأخّر، بل النهي عن الكفر، وهو منهم أقبح؛ لأنّهم يعرفون الحقّ، ويسارعون إلى الكفر استكباراً وعناداً. وأوّل من يبادر إلى الكفر، يتأسّى به ضعاف النفوس، فيغترّون، فيكون ممّن سنّ سنّة سيّئة.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

الذي يدعو هؤلاء إلى الكفر والعناد على الرغم من الآيات الواضحات، هو أمور دنيويّة، واعتبارات تافهة، فقد ورد أنّهم كانوا يتوقّعون نزول الوحي على رجل منهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

(1) سورة الزخرف، الآية 31.

وقيل: إنّ حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرين من اليهود كان لهم امتياز على اليهود في كلّ سنة، فكرهوا بطلانه بأمر النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فحرّفوا لأجل ذلك آيات من التوراة فيها صفة النبيّ وذِكْرهُ[1].

فالثمن القليل هو متاع الدنيا من المال والجاه والامتيازات التي يريدون الحفاظ عليها، ولو بالكفر والمكابرة والعناد. وكلّ الدنيا في حسابات الآخرة هي ثمن قليل!

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾:

التقوى: هي الخوف الذي يدفع إلى الاتّقاء. ومقتضى تقوى الله -تعالى- أن يلتزم [العبدُ] بأوامره، وأن يقف عند حدود نواهيه. وتقديم ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ يفيد الحصر؛ أي لا تتّقوا غيره. وجاء في ختام الآية للتذكير بأنّ مقتضى تقوى الله -تعالى- الامتناع عن المكابرة والكفر والإيمان بالآيات، بدلاً من التخلّي عنها مقابل متاع الدنيا.

الآية (42)

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

نهيٌ عن تعمّد الإضلال والإغواء عن طريق تشويه الحقائق وإخفائها، وهو ما يعمد إليه أهل الضلالة، المعاندون والمكابرون، فهم عرفوا الحقيقة؛ لأنّهم وجدوها في كتبهم ووصايا رسلهم، وجاءهم ما يطابقها ويصدّقها، فعمدوا إلى إخفاء الحقيقة، والتلبيس على الناس، وتشويش ما كان قد ظهر منها، بطرح الشبهات، ولبس الحقّ

(1) الشيخ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، مصدر سابق، ج1، ص186.

بالباطل؛ لتضييع الحقيقة. ولبس الحقّ بالباطل؛ يعني خلطه به، بحيث يعمى على الباحث، ويصعب معه التمييز.

وهذه الآية تشير إلى أنّ إنكارهم وكفرهم إنّما هو إنكار بعد المعرفة، وجحود بعد تبيان الحقّ، وأنّهم كانوا يتعمّدون إخفاء الحقّ والتلبيس على الناس؛ ولذا قال -تعالى-: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقيل: إنّ هذا النهي لا يستلزم وقوع ذلك منهم. ويردّه: إنّه، وإنْ كان الأمر كذلك، ولكنّه يُشعِر -على الأقلّ- بأنّهم كانوا يفعلون هذا الأمر. وقد أخبرت آيات أخرى عن ذلك، قال -تعالى-: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1].

ثمّ إنّ تقييد النهي في الآية بالعلم، لا يدلّ على جواز ذلك مع عدم العلم؛ لأنّ مثل هذا القيد، إنّما يأتي في سياق إثبات الموضوع، فكأنّ تعمّد التلبيس إنّما يأتي مع العلم، وعادة لا يكون التلبيس مع عدم العلم متعمّداً، لا أنّه يصبح مقبولاً وجائزاً. ومثله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[2]، فإنّه لا يدلّ على جواز ذلك بالثمن الكثير، بل المراد أنّ كلّ ثمن فهو قليل.

وتدلّ الآية -أيضاً- على وجوب إظهار العلم بالحقّ عند العالم به، وعلى حرمة كتمانه.

(1) سورة غافر، الآية 5.
(2) سورة البقرة، الآية 41.

الآية (43)

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

بعد أمرهم بالإيمان، ونهيهم عن الكفر وكتمان الحقّ، أمرهم الله -تعالى- في هذه الآية باللوازم العمليّة المترتّبة على الإيمان، وأوّلها: أداء العبادات المفروضة، وعلى رأس العبادات إقامةُ الصلاة، ثمّ إيتاء الزكاة.

وإقامة الصلاة: هي دوام فعلها، والمحافظة عليها، لتكون قائمة؛ أي ثابتة مستمرّة؛ لأنّها عمود الدين[1]، ومعراج المؤمن، وقربان كلّ تقي[2]. وقد ورد الحثّ عليها في القرآن الكريم 99 مرّة.

وورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليكن أكثر همّك الصلاة؛ فإنّها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين**»[3].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**الصلاة حصن من سطوات الشيطان**»[4].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يؤثر على الصلاة عشاءً ولا غيره، وكان إذا دخل وقتها كأنّه لا يعرف أهلاً ولا حميماً**».

والصلاة أوّل شيء يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة[5].

---

(1) انظر: العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج79، ص218.
(2) انظر: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص265.
(3) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص26.
(4) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص66.
(5) انظر: الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص328.

وأمّا الزكاة، فهي النماء والزيادة، وهي التطهير. وزكاة المال: تطهيره؛ بإخراج الحقوق المفروضة فيه، ويترتّب على ذلك النماء، فالمال إذا أدّيت زكاته، زكا ونما وتضاعف، قال -تعالى-: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]. وأداءُ الحقوق شكر محقّق، قال -تعالى-: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[2].

﴿وَٱرْكَعُواْ﴾:

الركوع هو الخضوع، وجاء الانحناء تعبيراً عنه. وقد ذكِرت وجوه عدّة في نكتة أمرهم بالركوع مع الراكعين، بعد أمرهم بإقامة الصلاة، أبرزها:

1. التأكيد والتنصيص على صلاة فيها خشوع، وأنْ تكون تلك ظاهرة عامّة مع الراكعين.
2. التوضيح بأنّ الصلاة المطلوبة هي الصلاة التي فيها ركوع، وهي صلاة المسلمين، فقد أمرهم [الله] بإقامة الصلاة التي يصلّيها المسلمون، وهم، وإنْ كانوا على غير الإسلام، والعبادات لا تُقبل إلّا بالإسلام، ولكنّ الإسلام ممكن منهم، فبإمكانهم أن يصلّوا الصلاة الصحيحة بالدخول في الإسلام، فيصحّ أمرهم بذلك.
3. أن يكون الأمر بالصلاة جماعة.

(1) سورة إبراهيم، الآية 7.
(2) سورة الروم، الآية 39.

الآية (44)

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

الاستفهام للتقرير والتوبيخ. والبرّ هو الخير، وكلّ عمل فيه خير فهو برٌّ ومعروف. وكأنّ الخطاب في الآية، وإنْ تصدّر بنداء بني إسرائيل، ولكنّه يتوجّه بالدرجة الأولى إلى أحبارهم، فهم بحكم موقعهم ومكانتهم يتصدّون للأمر بالمعروف، ويطلبون من الناس فعل الخير والصلاح والمعروف، ولكنّهم يعدلون إلى غيره على مستوى أنفسهم، فيأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون، وبالتورّع عن الدنيا ولا يتورّعون، وباتّباع الحقّ مع معرفتهم له ولا يتّبعونه!

ولعلّ الأقرب -هنا- ما يرتبط بالإسلام، فهم:

1. يأمرون بشكل عامّ باتّخاذ الحقّ ميزاناً ومعياراً للقبول والرفض، واتّباع الحقّ، والإخلاص في طلبه، ولكنّهم عندما جاءهم الحقّ وعرفوه أنكروه.
2. كانوا على ما قيل ينصحون سرّاً من يستشيرهم باتّباع النبيّ محمّد ﷺ، ولا يتّبعونه.
3. كانوا قبل مجيء النبيّ محمّد ﷺ يأمرون الناس بالانتظار والاستعداد للإيمان برسول سيظهر، فلمّا ظهر كفروا به ولم يتّبعوه.

﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾:

تتركون البرّ، كأنّكم نسيتم أمرها بذلك.

﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾:

زيادة في التبكيت؛ حيث إنّ الكتاب يمثّل الذِكْر، وتلاوته يفترض أن تردعهم عمّا يفعلونه من منكرات أو عناد للحقّ. والأرجح أنّ الكتاب هنا يُراد به كتابهم، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والبشارة ببعثته، والأمر باتّباعه.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

توبيخ لهم، ودعوة لهم بالرجوع إلى العقل والتعقّل، والرشد والصواب، الذي يفرض عليهم الامتناع عمّا يقومون به، فعقولهم تأبى ما يفعلونه، وتنكر ما يُقدِمون عليه.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام «**أعظم الناس حسرة (أشدّ الناس عذاباً) يوم القيامة، من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره**»[1].

وورد في تفسيره عليه السلام قولَه -تعالى-: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ أنّه قال: «**يا أبا بصير، هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم، ثمّ خالفوه إلى غيره**»[2].

الآية (45)

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾:

ذُكرَت عدّة وجوه في تعيين المُخَاطَبين في هذه الآية، وهي:

1. المؤمنون؛ بقرينة قوله -تعالى-: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص300.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص47.

﴿تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾[1]؛ ولأنّ مَن لا يؤمن بالإسلام ونبيّه، لا يؤمن بصلاته وصومه، فلا يصحّ أن يقال له: استعن بهما.

2. بنو إسرائيل؛ بمقتضى السياق، حيث الآيات السابقة واللاحقة تخاطبهم، ولا قرينة على التفكيك.

3. عامّ لبني إسرائيل ولكلّ المؤمنين، فكلٌّ يستعين بصلاته وبالكيفيّة التي هي عنده.

والصبر: هو التحمّل وحبس النفس على شيء، ويقابله الجزع. وسمّي الصوم صبراً لكونه من مظاهره، ففي الحديث: «**صيام شهر الصبر وثلاثة أيام في كلّ شهر يُذهب وحْر الصدر**»[2]. وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، قال: «**يعني بالصبر الصوم**»[3]، وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**إذا نزلت بالرجل النازلة والشدّة فليصم، فإنّ الله -عزّ وجلّ- يقول:** ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ **يعني الصيام**»[4].

ووجه الاستعانة بالصبر والصلاة: أنّ الإنسان في مسيرته التكامليّة، وفي أدائه لمقتضى الميثاق، تواجهه عقبات عدّة تُزلّ قدمه، وتعرقل مسيرته، وتشدّه نحو الدنيا وشهواتها ولذائذها، فهو بحاجة إلى ما يعينه على مقاومتها، والصبر عليها، وتحمّل الشدائد في سبيل التخلّص من إغراءاتها، وتجاوز كمائنها ومطبّاتها؛ لذا فهو

(1) سورة البقرة، الآية 135.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص92.
(3) الصدوق، محمّد بن عليّ، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط، ج2، ص86.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص63-64.

يحتاج إلى الصبر والتحمّل والثبات. ويُعدّ الصوم أحد مظاهره، وأحد العبادات التي تنمّي لديه القدرة على التحمّل، وتقوّي فيه الإرادة. وأمّا الصلاة، فلأنّها ذِكْرٌ دائمٌ ومستمرّ، والذِكْر يحمي الإنسان من الغفلة والانحراف الناشئ عنها.

وعليه، كان الصوم «**جُنّة من النار**»[1]، والصلاة: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾:

الضمير عائد على الصلاة عند أغلب المفسّرين، وقيل: هو عائد على الاستعانة، وقيل: عائد على إجابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لما دعا إليه، وفيه تكلّف ظاهر.

ومعنى كبيرة هنا: شاقّة ثقيلة. وقد لا يكون ثقلها لصعوبة أدائها، وإنّما لأنّ الكافر أو الجاحد يجد صعوبة في الاستجابة لها والقيام بها من جهة إعراض النفس. أمّا الخاشعون الذين عرفوا ربّهم، فخشعت قلوبهم، وخضعت نفوسهم، فهؤلاء لا يثقل عليهم شيء من طاعة ربّهم، ولا يجدون مشقّة في أداء العبادات التي تُفرَض عليهم، والذين آمنوا بلقاء ربّهم بأنّهم راجعون إليه، فيحاسَبون على أعمالهم؛ يدفعهم ذلك إلى استشعار الخوف والاستعداد.

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص19.
(2) سورة العنكبوت، الآية 45.

الآية (46)

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾:

ذُكِرَت في معنى الظنّ الوارد في الآية أقوال، هي:

1. العلم واليقين؛ بقرينة وروده بهذا المعنى في آيات أخر، مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾[1]، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾[2]، ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[3]. وقد جاء الظنّ في القرآن الكريم في مورد الشكّ في آيات أخرى، مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾[4]، ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[5].
2. يظنّون أنّ الموت مدركهم عن قريب، فيحذرون؛ لأنّ الظنّ الوارد في الآية لم يتعلّق بأصل الحياة الأخرويّة، وإنّما بانقضاء الأجل.
3. يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم بذنوبهم؛ لشدّة إشفاقهم من الإقامة على المعصية.
4. إنّ الحذر والاستعداد لا يتوقّف على أزيد من الظنّ، فمن ظنّ بلقاء ربّه وخطورة هذا اللقاء، وأنّ ثمّة حياة أخرى ذات طبيعة مغايرة، فيها من الثواب والعقاب ما بيّنته الأخبار والنصوص، ينبغي له الحذر والعمل والتضحية بزينة الدنيا التي لا دوام

(1) سورة الحاقة، الآية 20.
(2) سورة التوبة، الآية 118.
(3) سورة الكهف، الآية 53.
(4) سورة يونس، الآية 36.
(5) سورة الجاثية، الآية 24.

لها ولا أمان؛ وعليه، فيكون الحديث في الآية عن الحدّ الأدنى الدافع للعمل، وهو الظنّ، وهو لا ينفي ما فوقه[1]. وهو أقرب الوجوه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ لقاء الله والرجوع إليه ليس على وجه الحقيقة، وإنّما هو كناية عن لقاء جزاء الأعمال، والمصير إلى وقفة الحساب، وذلك مثل قولهم: يرجع أمر فلان إلى فلان، وعاقبة فلان عند فلان. ولا يستوجب هذا النحو من رجوع الأمر أن يكون ثمّة بعُد سابقاً. نعم، باعتبار ابتعاد الإنسان نفسه عن ربّه بالغفلة والمعصية، كان ما بعد الموت رجوع؛ لأنّه يفقد الاختيار الذي استغلّه للمعصية، وتنتهي الغفلة؛ لانتفاء ما يشغله عن ربّه عندها.

الآية (47)

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

عودة إلى التذكير بالنعمة الإلهيّة الكبيرة على بني إسرائيل، وأُضِيف إليها التفضيلُ على العالَمين؛ فقد فضّلهم بالنعمة السابغة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب. ولا يدلّ ذلك على أنّهم أفضل من باقي الأمم على الإطلاق؛ لأنّه -تعالى- خاطب أمّة محمّد ﷺ بقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[2].

(1) انظر: العلاّمة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص153.
(2) سورة آل عمران، الآية 110.

الآية (48)

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

واتقوا: احذروا واعملوا؛ لأنّ العمل هو الوقاء. ويوماً: هو يوم الحساب والجزاء.

لا تجزي: لا تقضي ولا تغني، بأن تتحمّل عنها عذابها، أو تخلّصها منه.

ولا يقبل منها شفاعة: إلّا الشفاعة التي أذن بها الباري -عزّ وجلّ، وهي لأهل الإيمان.

ولا يؤخذ منها عدل: العدل هو الفداء.

ولا هم ينصرون فيمتنعون؛ أي لا يقدَّم لهم العون، فينتصرون به، مقابل ما يواجههم من أخطار.

الآية (49)

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾:

يمنّ الله -تعالى- في هذه الآية على بني إسرائيل؛ بأنْ خلّصهم من ظلم فرعون وآله، ويذكّرهم بهذه النعمة العظيمة.

من هو فرعون؟

ورد في الموسوعة العربيّة الميسّرة: فرعون منحوتة من اللفظين

المصريّين (پر- عو)؛ أي (البيت الأعظم)، حيث كانت نعتاً للقصر الملكيّ منذ أيّام الدولة القديمة، ثمّ أصبحت علَماً على ملوك مصر منذ الألف الأوّل ق.م، مثلها في ذلك مثل إطلاق (الباب العالي) على السلطان من آل عثمان. وقد تردّد ذِكر هذه الكلمة في سفر الخروج في التوراة، وفي القرآن[1].

وذُكِر هذا الاسم في القرآن الكريم مقروناً بقصّة موسى عليه السلام وبني إسرائيل. وفي الروايات إطلاق لاسم فرعون على الملوك المصريّين الذين عاصروا يوسف عليه السلام، ثمّ ذرّيّته من بعده.

وقيل: إنّ فرعون موسى هو الجبّار الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير.. رابع فراعنة مصر. وكان من قصّة هذا الجبّار أنْ أخبره المنجّمون بقرب ولادة غلام في بني إسرائيل يكون قتله ونهاية ملكه على يده، فأوقع في بني إسرائيل قتلاً وتعذيباً، وأمر بقتل كلّ غلام يُولد لهم، وفيه تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب السيرة والتاريخ. وقيل: إنّ فرعون قتل عشرين ألف مولود ونيّفاً، وتعذّر عليه الوصول إلى قتل موسى عليه السلام، بحفظ الله -تعالى- إيّاه[2].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾:

السوم: أن تُجشِّم إنساناً مشقّةً وخطّة من الشرّ، تسومه سوماً، كسوم العالّة، والعالّة بعد الناهلة، فتحمل على شرب الماء ثانية

(1) مجموعة من الباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت . صيدا، 1431هـ/ 2010م، ط1، ص2388(نسخة الكترونية).

(2) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات دار الهجرة، إيران - قم، 1404هـ - 1363 ش - 1984م، ط2، ج1، ص61.

بعد النهل، فيكره ويداوم عليه لكي يشرب[1].

فآل فرعون كانوا يُنزلون سوء العذاب ببني إسرائيل بشكل مستمرّ، حتّى صارت سمة بارزة ودائمة.

وسوء العذاب؛ أي أسوأه.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾:

هذا بيان لسوء العذاب، وهو ذبح الأبناء مرّة بعد مرّة، لمكان التشديد؛ أي التذبيح، وليس الذبح.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾:

ذُكِرَ فيه وجهان:

1. إبقاؤهنّ أحياء بعد قتل الأبناء، وفيه من العذاب أكثر من عذاب القتل لهنّ، وخاصّة أنّهم كانوا يستعبدونهنّ ويتركوهنّ للخدمة؛ أي خدمة قاتلي الأبناء، وفيه قتل للنفوس، وإذلال لها، وعذاب نفسيّ مستمرّ، وربّما كان إبقاء البنات من الأبناء -أيضاً- داخلاً فيه، وغلّب النساء عليه، وفيه -أيضاً- من العذاب ما هو واضح.
2. فعل ما يُوجب زوال الحياء من المنكرات، أو ما يبعث على الحياء.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾:

البلاء: الامتحان، وهو يقع في الخير والشرّ، والله يبتلي الإنسان بلاءً حسناً، وبلاءً سيّئاً. وقد عبّر القرآن عن كلّ ما فيه إظهار لجوهر الإنسان بالبلاء.

(1) الخليل الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2، ج7، ص320.

- ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾[1].
- ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾[2].
- ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾[3].
- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾[4].

وأسباب نزول البلاء متعدّدة، فليس بالضرورة أن يكون عقاباً دائماً. ويقع البحث في فلسفة البلاء:

لماذا البلاء؟

ورد في الروايات بيان فلسفة البلاء، ومنها ما ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أنّ: «**البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة**»[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّ «**في كتاب عليّ عليه السلام أنّ أشدّ الناس بلاءً: النبيّون، ثمّ الوصيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل. وإنّما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه؛ وذلك أنّ الله -عزّوجّل- لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن**

(1) سورة الفجر، الآية 15.
(2) سورة الفجر، الآية 16.
(3) سورة الأنبياء، الآية 35.
(4) سورة النساء، الآية 6.
(5) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج64، ص235.

ولا عقوبة لكافر، ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه. والبلاء أسرع إلى المؤمن المتّقي من المطر إلى قرار الأرض»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[2].

الآية (50)

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

الفرق مقابل الجمع، كالفصل مقابل الوصل.

وفرق البحر: شقّه نصفين، قال -تعالى-: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

وقد وردت قصّة شقّ البحر في القرآن الكريم[4]، وفي الروايات المأثورة[5]، وفيها أنّ موسى عليه السلام بعد أنْ بُعِثَ بالآيات التسع، أوّلها العصا، وثانيها اليد، ثمّ ما تلاهما من الآيات، استمرّ فرعون في طغيانه وتجبّره حتّى زمن طويل، فأمر الله -تعالى- موسى عليه السلام بأن يسير بالمؤمنين إلى جهة الشرق، باتّجاه البحر، وحشر

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص259.
(2) المصدر نفسه، ص275.
(3) سورة الشعراء، الآية 63.
(4) انظر في قصّة غرق آل فرعون: سورة الأعراف، الآية 126؛ سورة الأنفال، الآية 54؛ سورة الإسراء، الآية 103؛ سورة الشعراء، الآيتان 63 - 66؛ سورة الزخرف، الآية 55؛ سورة الدخان، الآية 107.
(5) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص315-316.

فرعون جنده، واتّبعهم ولاحَقَهم، فحاصرهم عند البحر، فاعترت بني إسرائيل حالةٌ من الخوف والاضطراب، فالبحر من أمامهم والعدوّ من ورائهم. وقد طمأنهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1]، فأبدى سكينةً تميّز بها الأنبياء عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام من غيرهم من الناس، ولا سيّما في أوقات الشدّة والصعوبة.

ثمّ أوحى الله -تعالى- إلى موسى عليه السلام أنِ اضرب بعصاك البحر، فانفلق شقّين، وبدا في الوسط طريق يابسة، عبر من خلالها موسى عليه السلام ومن معه إلى الضفة الأخرى؛ الأمر الذي أغرى فرعون بسلوك الطريق نفسها ومواصلة الاتّباع والمطاردة، فأطبق الله -تعالى- البحر عليه وعلى أصحابه، وكان في ذلك هلاك فرعون، وخاتمة أمره. وحصل ما حصل كلّه أمام أعين بني إسرائيل؛ لذا كان ما جرى نعمة كبيرة من الله -تعالى- عليهم استدعى الأمر تذكيرهم بها في سياق دعوتهم إلى الرجوع إلى العهد الإلهيّ وإصلاح أنفسهم.

الآية (51)

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾:

قضيّة الميقات مذكورة تفصيلاً في قوله -تعالى-: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وخلاصتها: إنّ موسى خرج إلى حيث واعده ربّه، وكان الميقات ثلاثين

(1) سورة الشعراء، الآية 62.
(2) سورة الأعراف، الآية 142.

ليلة، فزاده الله عشراً، فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة، وفي ختامها أنزل الله -تعالى- عليه التوراة في الألواح.

وفي غيابه، وبعد إتمام الثلاثين، استغلّ السامريّ تأخّر موسى، ليثير شكوكاً حول عودته، مستفيداً ممّا عند بني إسرائيل من رواسب الصنميّة، حيث يحكي القرآن عنهم أنّهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة من الأصنام يعبدونها، كما جاء في قوله -تعالى-: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[1].

كان السامريّ يعمل صائغاً، فطلب منهم أن يأتوه بما لديهم من ذهب كانوا غنِموه من آل فرعون أو من قوم غيرهم، فصنع لهم منه مجسّماً لعجلٍ جوفُه فارغ، واحتال ليخرج منه صوت خوار؛ قيل: جعل ينفخ فيه، وقيل: إنّ إبليس هو الذي دخل في جوفه، فجعل يخور، وقيل: إنّه قد أخذ قبضة من التراب الذي داست عليه فرس جبرئيل، فجعلها في العجل، فصار يتحرّك ويُصدر صوتاً، ودعا بني إسرائيل إلى عبادته، زاعماً أنّه إلههم وإله موسى، فاتّبعه جماعة كبيرة منهم، وارتدّوا عن موسى عليه السلام، وعصَوا أمر خليفته فيهم؛ أي هارون، وكادوا يقتلونه، فاعتزلهم مع من ثبت على دين موسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر ألفاً على الأقلّ.

(1) سورة الأعراف، الآية 138.

وتفاصيل قصّة رجوع موسى عليه السلام وإحراق العجل ونسفه في اليمّ، ذلك كلّه مذكور في سورة الأعراف.

الآية (52)

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

بعد أن أظهر بنو إسرائيل الندم والتوبة على ما اقترفوه، عفى الله عنهم؛ ليشكروا الله ويغيّروا حالهم.

الآية (53)

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

الكتاب هو التوراة، والفرقان: ما يفرق بين الحقّ والباطل. وقد ذُكِرَت وجوه في معناه، منها:

1. إنّه التوراة نفسها؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وكُرّر لاختلاف اللفظين.
2. إنّه انفراق البحر، والفرج الذي أتاهم، كما في قوله -تعالى-: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].
3. إنّه الحلال والحرام والأحكام.
4. إنّه النصر الذي هُزم فيه الباطل ممثَّلاً بفرعون، ففُرِق فيه بين الحقّ والباطل.
5. إنّه مجموعة الآيات والحجج التي أوتي موسى عليه السلام؛ لأنّها فرقان بين الحقّ والباطل.

(1) سورة الأنبياء، الآية 48.
(2) سورة الأنفال، الآية 29.

والغاية من إيتاء الكتاب والفرقان هي اهتداء الناس، وقد عُبّر عنها بقوله -تعالى-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وورد ذِكْر الفرقان في القرآن الكريم في سبع آيات، هي:

1. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].
2. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[2].
3. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[3].
4. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].
5. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[5].
6. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[6].
7. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[7].

ففي الآيتين الثانية والسابعة ورد الفرقان بمعناه اللغويّ.

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة ورد الفرقان بمعنى الكتاب؛ أي التوراة أو القرآن.

وفي الآية السادسة ورد الفرقان بمعنى النصر؛ أي يوم النصر، وهو يوم بدر.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 48.
(2) سورة البقرة، الآية 185.
(3) سورة آل عمران، الآيتان 3 - 4.
(4) سورة الأنبياء، الآية 48.
(5) سورة الفرقان، الآية 1.
(6) سورة الأنفال، الآية 41.
(7) السورة نفسها، الآية 29.

الآية (54)

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

إنّ عبادة غير الله -تعالى- ظلم يقع على العبد نفسه، وذلك من جهات:

1. إنّه التزام لما لا يستحقّ ذلك، كتقديم التعظيم لغير أهله، والطاعة لغير من فُرضت علينا طاعته؛ فهو ظلم للنفس.
2. إنّه التزام بنسبة الفضل إلى غير أهله، كنسبة الخلق أو التدبير أو التأثير، وهو إيقاع للنفس بالجهل.
3. إنّه تعريضُ النفس لأنواع العذاب التي يقتضيها الشرك.
4. إنّه حرمان النفس ممّا يستوجبه الإيمان والطاعة من ثواب ومنازل كرامة، ومن الكمالات المناسبة، ومن أنوار الهداية التي يتمتّع بها أهل البصائر.

واتّخاذُ العجل جعْلُه إلهاً وعبادتُه من دون الله، والعجل هو المجسَّم الذي صنعه السامريّ على شكل عجل، فأطلق عليه الاسم لشبهه به.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾:

البارئ هو الخالق المبدع الذي بدأ الخلق وبرأهم فأوجدهم، فهو أحقّ بأن يطاع ويُرجَع إليه ويُتعلَّق به. واستُخدمت هذه الصفة هنا للتنبيه على هذه المنّة التي تستوجب تعلّق العبد به -تعالى-، وطاعته له، والتمسّك بحبله دون سواه. أضف إلى ذلك أنّ هذه

الصفة تناسب قوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾، فإنّ البارئ هو المُوجِد، وهو الذي يريد منكم قتل أنفسكم.

والتوبة تعني الرجوع، وتاب وأناب بمعنى رجع. والتوبة توبتان، كما تقدّم في توبة آدم عليه السلام وتوبة الله عليه.

وهذه التوبة هي رجوع عن ظلم النفس، وتخلٍّ عن العجل، وعودة إلى حظيرة الإيمان ودائرة الطاعة.

ولكلّ توبة مستلزمات:

1. ردّ المظالم.
2. أداء الحقوق.
3. قضاء الفوائت.
4. تكفير الذنب بالعمل الصالح الذي يجبر الخلل الحاصل من الذنب.

وهذا الأخير، يختلف باختلاف الذنوب وآثارها؛ لذا كان تكفير ذنبهم في اتّخاذ العجل بقتل النفس.

﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾:

الخطاب لمَنْ عَبَد العجل. وروي أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وأنّ مَن لم يعبد العجل أُمِر بقتل عَبَدة العجل، وأنّ الذين عبدوا العجل كانوا سبعين ألفاً، أمرهم موسى عليه السلام أن يأتوا ملثَّمين معهم السكاكين، حتّى إذا صعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً، ففعلوا حتّى قُتل عشرة آلاف منهم (وقيل: سبعون

ألفاً)، فنزل جبرئيل عليه السلام، وطلب من موسى عليه السلام أن يقول لهم إنّ الله قد رفع عنكم القتل وتاب عليكم[1].

والخطاب، في هذه الآية والآيات المتقدّمة، وإنْ كان بصفة الجمع، ولليهود الذين عاشوا في عصر النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، إلّا أنّ ذلك ناشئ من الارتباط القائم بينهم، بحيث يرضى المتأخّر منهم بعمل المتقدّم، فيُنسب إلى الجميع؛ ولذا ناسب التعبير بقوله -تعالى-: ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، مع أنّهم أسلافهم خاصّة.

الآية (55)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

على الرغم من تلك الدلالات كلّها التي وردت في الآيات السابقة، إلّا أنّ بني إسرائيل -أو بعضهم على الأقلّ- لم يؤمنوا إيماناً صادقاً، فطالبوا بأن يروا الله ويسمعوه، وهذا إنْ دلّ على شيء، فهو يدلّ على عناد متأصّل، ومكابرة تجاوزت الحدود، حيث إنّهم لم يكتفوا بالأدلّة على أنّ موسى عليه السلام كان يكلّمه ربّه، فهم يريدون أن يكلّمهم -أيضاً- وينظروا إليه.

استحالة رؤيته -تعالى-

لا يمكن رؤية الله بالعين؛ ذلك أنّها لا ترى إلّا إذا كان المرئيّ له

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص47؛ الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص218-219.

جسم ولون وجهة، وهي محالة عليه -تعالى-، أو أن يتمثّل المرئيّ في صورة جسم، كما في تمثّل الملائكة، وهو -أيضاً- غير جائز عليه -تعالى-، لكنّ بعض المتكلّمين أجاز رؤية الله -تعالى- يوم القيامة، لا في الدنيا، ومن قِبَل المؤمن فقط، مستدلًّا بقوله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[1].

وقد ورد التعبير بلقاء الله في القرآن في أكثر من مورد، كقوله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾[2]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾[3]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[4].

وورد -أيضاً- استحالة رؤيته -تعالى- في القرآن في بعض الآيات، كقوله -تعالى-: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[5]، وقوله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ﴾[6].

وهو ما بيّنته -أيضاً- الروايات المأثورة، ومنها:

1 - جاء حبر إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال: **ويلك، ما كنت أعبد ربّاً لم أره**، فقال: وكيف رأيته؟ قال: **ويلك، لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان**»[7].

---

(1) سورة القيامة، الآيتان 22-23.
(2) سورة العنكبوت، الآية 5.
(3) سورة فصلت، الآية 54.
(4) سورة الكهف، الآية 110.
(5) سورة الأعراف، الآية 143.
(6) سورة الأنعام، الآية 103.
(7) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط، ص109.

2 - دخل رجل من الخوارج على الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، فقال له: «يا أبا جعفر! أيّ شيء تعبد؟ قال: **الله**. قال: رأيته؟ قال: **لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواسّ، ولا يُشبّه بالناس. موصوف بالآيات، معروف بالعلامات. لا يجور في حكمه؛ ذلك الله لا إله إلّا هو**»[1].

3 - عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الله أعظم من أن يُرَى بالعين**»[2].

4 - سأل معاوية بن وهب الإمام الصادق عليه السلام عن الحديث المرويّ: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربّه؟ على أيّ صورة رآه؟ وعن الحديث الذي روَوه أنّ المؤمنين يرون ربّهم في الجنّة؟ على أيّ صورة يرونه؟ فتبسّم، وقال: «**يا معاوية، ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة، يعيش في ملك الله، ويأكل من نعمه، ثمّ لا يعرف الله حقّ معرفته!** ثمّ قال: **إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يرَ الربّ -تبارك وتعالى- بمشاهدة العيان، وإنّ الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب، فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر، فقد كذب وكفر بالله وآياته؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من شبّه الله بخلقه فقد كفر... وإذا كان المؤمن يرى ربّه بمشاهدة البصر، فإنّ كلّ من جاز عليه البصر والرؤية، فهو مخلوق، ولا بدّ للمخلوق من خالق، فقد جعلته إذاً محدثاً مخلوقاً، ومن شبّهه بخلقه، فقد اتّخذ مع الله شريكاً. ويلهم! ألم يسمعوا لقول الله -تعالى-:** ﴿لَّا تُدْرِكُهُ

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص108.
(2) المصدر نفسه، ص112.

ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وقوله لموسى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾؛ **وإنّما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سمّ الخياط، فدُكدكت الأرض، وصعقت الجبال، وخرّ موسى صعقاً؛ أي ميتاً؛ فلمّا أفاق وردّ عليه روحه، قال سبحانك تبت إليك مِن قولِ مَن زعم أنّك تُرى، ورجعت إلى معرفتي بك أنّ الأبصار لا تدرك، وأنا أوّل المؤمنين بأنّك تَرى ولا تُرى، وأنت بالمنظر الأعلى...»**[1].

5 - عن الإمام الجواد عليه السلام: «**... فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون**»[2].

وقد وردت قصّة طلب بني إسرائيل رؤيةَ الله -تعالى- مفصّلاً في سورة الأعراف.

حقيقة الصاعقة

الصاعقة هي ما ينزل من السماء، فيصعق الإنسان، وقد تسبّب الهلاك، وقد تحدِث الغشية. وورد ذِكرها في القرآن في مواضع عدّة، هي:

1 - صعقة يوم القيامة، وهي نفخة الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ

(1) الخزاز القمي، علي بن محمد، كفاية الأثر، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ، لا.ط، ص260.
(2) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص113.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥﴾[2].

2 - صاعقة عاد وثمود، وهي صاعقة العذاب: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾[3]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾[4].

3 - صواعق المطر والرعد: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[5].

وورد ذِكْر صاعقة بني إسرائيل في سور البقرة والنساء والأعراف، ويبدو أنّها صاعقة العذاب، وهي تطلق على الصوت الشديد الذي يُوجب الخوف والرهبة.

الآية (56)

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

المراد بالبعث في الآية هو الإحياء بعد الإماتة، وهو يدلّ على أنّ الصاعقة كانت قد أماتتهم، وهو ما يشير إليه قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّاۖ﴾[6]. والآية تدلّ على إمكانية الرجعة؛ لأنّ الله -تعالى- أعادهم إلى الحياة بعد الموت في هذه الدنيا.

(1) سورة الزمر، الآية 68.
(2) سورة الطور، الآية 45.
(3) سورة فصلت، الآية 13.
(4) السورة نفسها، الآية 17.
(5) سورة الرعد، الآية 13.
(6) سورة الأعراف، الآية 155.

الآية (57)

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

يذكّرهم الله -تعالى- في هذه الآية بنعم أخرى منّ بها عليهم، وذلك في سنيّ التيه في الصحراء، حيث أحرقتهم الشمس، وأعوزهم الماء والكلأ.

والغمام: هو الغيم يغطّي السماء، فيمنع حرارة الشمس.

وأمّا المنّ والسلوى، فقد اختُلف فيها أشدّ اختلاف، فقيل إنّ المنّ هو:

1. ما يسقط على الشجر، فكان ينزل عليهم، مثل الثلج، شيءٌ كالطلّ، يسقط على الشجر.
2. العسل.
3. حَبّ يشبه بذر الكزبرة، يتساقط على الأرض ليلاً، فيصنعوا منه خبزاً.
4. الزنجبيل.
5. شيء كالصمغ، يقع على الأشجار، وطعمه كالشهد والعسل.
6. كلّ ما منّ الله -تعالى- به على عباده، ممّا لا تعب فيه ولا نصب.
7. الكمأة؛ لما روي عن النبيّ ﷺ من أنّ الكمأة من المنّ[1].

وأمّا السلوى، فقيل فيه:

8. السمّانيّ، وهو طائر معروف.

(1) انظر: البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج2، ص527.

9. طائر كالسمّانيّ.

10. اللحم؛ لأنّه يسلّي عن غيره من الأدام.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾:

على تفسير المنّ بالطلّ أو الحبّ النازل من السماء، يكون الإنزال على الحقيقة، وعلى غير ذلك من التفاسير يكون بتقدير الرزق، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[1]. فالمنزل هو الأمر الإلهيّ أو التقدير.

مسألة: إذا كان التيه عقوبة، فإنزال المنّ والسلوى، والتظليل بالغمام، عناية ونعمة تنافي العقوبة، فكيف اجتمعا؟

يبدو أنّ بعض بني إسرائيل، بعد قصّة التيه، أدرك أنّها عقوبة، وأنّهم أخطأوا في قولهم لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وكانت الصحراء قاسية جدّاً عليهم، ليس فيها ظلّ، ولا فيها طعام، فاستجاب لهم ربّهم بالغمام والمنّ والسلوى؛ وفي ذلك زيادة في إلقاء الحجّة.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ ولعلّه إشارة مطويّة إلى أنّهم، على الرغم من النعم المذكورة كلّها، لم يعتبروا ولم يشكروا، وتمادوا في غيّهم، فأعرض عنهم بالخطاب، ليكون بمنزلة الإعراض عنهم بالوجه، والإعراض عنهم بالعناية والرحمة.

(1) سورة الزمر، الآية 6.
(2) سورة المائدة، الآية 24.

ثمّ إنّ كفر الإنسان وتقصيره في أداء مقتضيات الشكر لن يضرّا الله شيئاً، بل يعود ضررهما على الإنسان نفسه؛ ولذلك كان فعلهما ظلماً لنفسه.

الآية (58)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

في هذه الآية ذِكْر للنعمة الثامنة التي أنعم الله -تعالى- بها على بني إسرائيل، وهي دخول القرية بعد التيه.

والقرية: هي المكان الذي يجتمع فيه الناس وهو يشمل البلد الصغير والكبير على حدّ سواء؛ وإنْ كان عرفاً يتبادر منه البلد الصغير. وقيل: هي بيت المقدس، وقيل: هي أريحا، وقيل: هي الأرض المقدّسة نفسها التي أمرهم موسى عليه السلام أن يدخلوها، فاعتذروا بأنّ فيها قوماً جبّارين[1].

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾:

الرغد: هو عيش السَعة الذي لا ينغّصه شيء.

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾:

قيل: إنّ الباب هو أحد أبواب بيت المقدس، وكان يدعى باب حطّة.

(1) انظر: سورة المائدة، الآية 22.

﴿سُجَّدًا﴾:

أصل السجود الخضوع -كما تقدّم في سجود الملائكة-، وهو يحتمل وجهين:

1. إنّهم أُمِروا بالدخول خاضعين خاشعين، وهي صفة العبد التائب، وذلك بعد إتمام عقوبة فُرِضَت عليهم مدّة 40 عاماً. ولا يجدر بالعبد أن يخرج منها متكبّراً متعالياً، بل مستكيناً خاضعاً.
2. إنّهم أُمِروا بالسجود المعروف، وهو إلصاق الجبهة بالأرض. واستبعده المفسّرين؛ لاستحالة اجتماعه مع حركة الدخول. ويردّه أنّ ذلك لا يقتضي ملازمة السجود لحركة الدخول، ويكفي أن يقع منهم السجود لدى الدخول، ليقال دخلوا ساجدين.

وعلى كلّ وجه، فإنّ إلصاق الجبهة بالأرض حالَ السجود يُقصد به إظهار الخضوع والتذلّل.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾:

حطّة مصدر، والحطّ الوضع والخفض والحدر من علوّ. وقيل فيها وجوه عدّة:

3. إنّهم أمِروا بقول ما يحطّ عنهم ذنوبهم من الاستغفار والتوحيد وأمثال ذلك، فتقديره: قولوا قولاً حطّة.

إنّهم أمِروا بهذا اللفظ على الخصوص. ويؤيّده ما جاء في الرواية من أنّهم بدّلوه إلى حنطة[1]. واستبعده بعضٌ باعتبار عربيّة لفظ حطّة، وعدم معرفتهم بالعربيّة آنذاك.

(1) القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج1، ص48.

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾:

المغفرة: ستر العيوب الناشئة من المعصية؛ وذلك بقبول التوبة، ومحو أثر الذنب. وقد رُتّبت المغفرة على قول حطّة، ليكون وعداً بالتوبة على من تاب واستغفر.

﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾:

جمع خطيئة، مثل: خطيئات، لكنْ قيل: إنّ خطايا جمع كثرة، وخطيئات جمع قلّة.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

وعد خصّ به الله -تعالى- العاملين بعد التوبة، الذين يحسنون صنعاً، ويستقيمون على التوبة. والوعد هو بالزيادة للنعم التي ذكرها، وربّما كانت الزيادة في الإحسان إليهم؛ بأنْ يعطيهم الآخرة بعد أن رزقهم في الدنيا. وهي تشبه قوله -تعالى-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[1].

الآية (59)

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾:

لم يتقيّد بنو إسرائيل بما أمرهم ربّهم به، واستبدلوه بغيره؛ استهزاءً ومخالفةً ومعصية.

(1) سورة يونس، الآية 26.

وذُكِر في قولهم وجوه، منها:

1. إنّهم بدّلوا كلمة حطّة، التي أُمِروا بها، إلى حنطة.
2. إنّهم قالوا: حطّا سماقانا؛ أي حنطة حمراء، والذي أُمِروا به قول يحطّ الذنوب، من قبيل: الاستغفار والتوبة، فالتبديل بقول لا يوجب ذلك.

وقد استحقّوا العذاب بذلك، فأنزل الله على الذين ظلموا، بتبديل القول ومخالفة الأمر وإظهار الاستهزاء، عذاباً من السماء. والرجز هو العذاب، وقيل: إنّهم أُهلكوا بالطاعون، فمات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً من كبرائهم وشيوخهم.

وقد ورد في بعض الروايات، عن رسول الله ﷺ قوله بشأن مرض الطاعون أنّه: «**رجز عُذّب به بعض الأمم قبلكم**»[1]، الذي ربّما رجع إليه مَن فسّر الرجز بالطاعون، والله أعلم.

وصريح الآية، أنّ العذاب أُنزل على خصوص مَنْ ظَلم من بني إسرائيل؛ وهم الذين بدّلوا القول وخالفوا.

الآية (60)

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

يبدو أنّ الاستسقاء حصل في فترة التيه، وهو يتناسب مع الصحراء، وقلّة المياه والحاجة الماسّة إليها، كما يناسب إظهارَ

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص230.

المعجزة بتفجير الماء من الحجر بضربة العصا، وهو متعيّن عند مَنْ ذهب إلى أنّ موسى عليه السلام مات في التيه.

والاستسقاء: طلب السقيا؛ أي طلب الماء، ومنه: صلاة الاستسقاء. ولم تذكر الآية ممّن طلب موسى عليه السلام الماء؛ وذلك لمعلوميّته وظهوره ممّا بعده عند الاستجابة. وكان الاستسقاء لقومه؛ وهم بنو إسرائيل.

وتجدر الإشارة إلى أنّ إجابة الدعاء تأتي بوسائلها وأسبابها، وقد تكون وسائط وأسباباً طبيعيّة، ولكنّها ترتبط به -تعالى-، فقد يطلب الإنسان الرزق، فيستجيب الله -تعالى- له بتيسير أسباب الرزق، فعلى السائل أن يسعى ويقوم بما ينبغي القيام به عادة من العمل والتصدّي للكسب، ولا ينبغي له بعد ذلك أن يغفل عن كون ذلك التيسير هو نتيجة للدعاء، وبعض آثاره.

ولذا، جاءت الإجابة بجعل الحجر يتفجّر بضربة عصا موسى عليه السلام، وكان -تعالى- قادراً على تفجير الماء بلا عصا موسى عليه السلام؛ وذلك لإفادة أمرين:

1. التسبيب والجري على السنّة الإلهيّة.
2. الإعجاز وإظهار فضل موسى عليه السلام، وإقامة الحجّة على بني إسرائيل؛ ليمنّ عليهم بعد ذلك بهذه النعمة.

وقيل في العصا: إنّها من أشجار الجنّة، أتى بها آدم عليه السلام معه، وكانت على طول موسى عليه السلام، ولها شعبتان في رأسها، وهي التي تحوّلت إلى ثعبان، وهي التي فلق الله بها لموسى عليه السلام البحر، فلها شأن عظيم.

وقيل في الحجر: إنّه حجر خاصّ حمله بنو إسرائيل معهم، وكانوا كلّما احتاجوا إلى الماء أنزلوه، فضربه موسى عليه السلام، وهكذا... وعليه حُمل التعريف. وقيل: إنّه حجر وجدوه في بعض منازل الصحراء، ضربه موسى عليه السلام بعصاه، وكانوا كلّما نزلوا بعد ذلك في منزل، وجدوه أمامهم. وربّما كان التعريف لاحقاً، باعتبار أنّه بعد تفجّر الماء صار الحجر متعيّناً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾:

قيل: تفجّر منها اثنتا عشرة عيناً، توزّع عليها اثنتا عشرة قبيلة؛ هم أسباط بني إسرائيل.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

عودة إلى المنّ على بني إسرائيل، بما رزقهم من المنّ والسلوى، وسقاهم الله الزلال، وهم في صحراء قاحلة، لا ماء فيها ولا كلأ، وتذكير لهم بأنّ ذلك كلّه من رزق الله لهم، وقد أباح الله لهم ذلك بحدودٍ لا فساد فيها ولا عُثِيّ. ومعنى عثا: أفسد، ومثله عثِيَ وبالغ في الفساد أو الكبر أو الكفر. عاث: أفسد.

وقد تكرّرت آية: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ خمس مرّات في القرآن. لكن إذا كان العثوّ يعني الفساد، بل شدّة الفساد، فكيف صحّ أن يقال: ولا تعثوَا في الأرض مفسدين. فما فائدة قوله مفسدين؟!

قيل: لأنّه يجوز أن يكون فعلاً ظاهره الفساد وباطنه المصلحة، كخرق موسى عليه السلام السفينة، فبيّن أنّ ذلك العثوّ كان إفساداً وليس إصلاحاً.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحقّقين، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1415هـ.ق/1995م، ط1.
3. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف - قم المقدسة، ربيع الأول 1409، ط1.
4. الرازيّ، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.ق/1981م، ط1.
5. الطباطبائيّ، العلامة محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط.
6. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبرّ الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، 1403هـ.ق/1362هـ.ش، لا. ط.
7. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة،

تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1405هـ - 1363 ش، لا.ط.

8. الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1.

9. المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2.

10. الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1363ش، ط5.

11. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ، ط1.

12. القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ، ط3.

13. القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، مصر - القاهرة، 1383هـ - 1963م، لا.ط.

14. الشريف الرضيّ، محمد بن الحسن، نهج البلاغة (خطب أمير المؤمنين عليه السلام)، شرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، مطبعة النهضة، قم المقدّسة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ط1.
15. الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1414هـ، ط1.
16. ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط.
17. الطبرسي، علي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق: مهدي هوشمند، دار الحديث، 1418، ط1.
18. الطبريّ، محمّد ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، 1415هـ.ق/1995م، لا. ط.
19. الهلاليّ الكوفيّ، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمّد باقر الأنصاريّ الزنجانيّ، نشر دليل ما، مطبعة نگارش، قم المقدّسة، 1422هـ.ق/1380هـ.ش، ط1.
20. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1370هـ - 1330 ش، لا. ط.

21. الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، لا.م، 1409هـ، ط1.
22. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، ثواب الأعمال، تقديم: محمّد مهديّ السيّد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضيّ، مطبعة أمير، قم المقدّسة، 1368هـ.ش، ط2.
23. الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق - النجف الأشرف، 1386هـ - 1966م، لا.ط.
24. ابن شعبة الحرّانيّ، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، 1404هـ.ق/1363هـ.ش، ط2.
25. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، قصص الأنبياء، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، مؤسّسة الهادي، إيران - قم، 1418 - 1376 ش، ط1.
26. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق وتقديم: حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1404هـ.ق/1984م، ط1.
27. الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث،

إيران - قم، 1417هـ، ط1.
28. الصدوق، محمّد بن عليّ، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط.
29. مجموعة من الباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت . صيدا، 1431هـ/ 2010م، ط1، ص2388(نسخة الكترونية).
30. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات دار الهجرة، إيران - قم، 1404هـ - 1363 ش - 1984م، ط2.
31. الخليل الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2.
32. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قم المقدّسة، لا. ت، لا. ط.
33. الخزاز القمي، علي بن محمد، كفاية الأثر، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ، لا.ط.